

صُورٌ مَضَارِيَّةٌ من التاريخ الإسلامي

تأليف

الأستاذة هوسن محمد نصر
كلية التربية - بنها
جامعة الزقازيق

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

صُورٌ مَضَارِيَّةٌ من التاريخ الإسلامي

تأليف

الأستاذة نورية بنو محمد
كلية التربية - بنها
جامعة الزقازيق

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الإدارة في مصر في عهد الإماميين

تأليف

الدكتورة سوسن محمد نصر

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

من أهم ما تمتاز به الدولة الأموية أنها لم تأخذ عن الممالك والأقطار التي فتحت في عهدها أو من قبلها مناهجها في الحكم ونظمها في السياسة فلقد قدر للدولة الفارسية أن تنهار أمام القوى الإسلامية الفاتحة وكذلك للروم أن يقهروا في كل من الشام ومصر ولقد كان للامبراطورية الفارسية ، كما كان للامبراطورية الرومانية من نظم الحكم والادارة وتقاليده الحياة الشيء الكثير الا أن الأمويين لم يتأسروا بنظم هانين الحضارتين ولم يأخذوا عنها الا القليل الضئيل ، ومن ثم اتفق المؤرخون على أن نظم الدولة الأموية كانت معظمها نظما إسلامية ، فالخلفاء كانوا يرسمون مناهج الحكم للولاة مستمدين ذلك من معينهم الأول من الذي نهلوا جميعا منه : الدين الإسلامي .

الا أن كتب التاريخ لم تذكر شيئا مفصلا عن نظم الادارة التي حكم بها القواد والولاة ابان الدولة الأموية - وانما ذكرت بعض الوظائف الغرض الذي نحن بصدده . ويكاد يكون أهم ما عرضت له كتب التاريخ من الوظائف العامة ووظائف الولاية العامة على الصلاة ، وولاية الخراج ، والقضاء وامارة الجند ، والشرطة وبعض الدواوين . والوظيفتان الأولى والثانية كانتا من اختصاص الخلفاء فهم يعهدون الا من يرون بهما أو بأحدهما حسب الظروف ، أما القضاء فكان التعيين فيه للوالي العام في أغلب الأوقات . فاستقصاء حالات توليه القضاء أيام الأمويين وجدت الولاة قد استأثروا منها النصيب الأعظم ولم أجد غير ثلاثة من الخلفاء تولوا بأنفسهم تعيين بعض القضاة وهم على سبيل التحديد : سليمان عبد الملك (اذ عهد الى القاضي عياض للمرة الثانية) . وهشام بن عبد الملك (اذ عهد الى يحيى بن مأمون الخضرومي) ولا يفيد ذلك أن يد الخلفاء كانت تقصر دون الوصول الى مراتب القضاة بالعزل أو الاقرار ، فقد كان الخلفاء يعتبرون أنه من الأوفق أن يختار الوالى لقضائه من يثق هو بعلمه ودينه وورعه وحفاظه على حقوق الناس . فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضي يحيى بن مأمون لما بلغه من شكايه من قضائه ومن تباطؤ كتابه عن أداء واجبه نحو الناس الا اذا قدمت اليهم الرشوة . فقد كتب هشام الى واليه الوليد بن رفاعه :

« أصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا ، وتخبر لقضاء جندك رجلا غفيرا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم(١) ، أما الوظائف الأخرى الباقية كامارة الجند ، أو رئاسة الدواوين أو تنصيب الحكام على الأقاليم - فقد كانت من صميم عمل الولاة ، اذ كانوا مسئولين أمام الخليفة عن أمور الأمن وسلامة الولاية . وان من يقرأ للمؤرخين

الذين تعرضوا لتلك القضية يجد الأدلة على ذلك متواترة كثيرة - وفيما يلي سأعود لكل من تلك الولايات بشيء من التفصيل :

١ - الولاية العامة :

وقد كانت تعتبر أهم وظيفة دينية ومدنية معا ، فالوالي هو نائب الخليفة المتصرف بحكمته وسداد رأيه بما يصون الولاية ويمنعها ويحفظها من كيد الكائدين واغارة المغيرين ، عليه يقع العبء الأول واليه ترجع نصاري الأمور في ولايته ثم يخلف الخليفة في امامة الناس في الصلاة ولا يلي هذا الأمر الا المشهود لهم بفضل من الدين والتقوى والورع والصلاح والمسلمون كانوا يقدرون الانابة على الصلاة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فحين اضطر (ص) الى انابة أبي بكر رضى الله عنه في امامة الناس زاد فضل أبي بكر وعظمت نظرة الناس اليه وكان ذلك من أول الأسباب التي دعت الى مبايعته بالخلافة بعد رسول الله (ص) ومن ثم كان الخلفاء يهتمون باختيار الوالى بصفة عامة وباختيار الوالى على مصر بصفة خاصة لما لها من المركز الممتاز بين الأقطار الاسلامية لقربها من السام من جهة ولأهميتها العامة من جهة ثانية ثم هي مركز تستطيع الدولة الاسلامية أن تننفس منه الى غيرها من الأقطار الأخرى المجاورة في البر والبحر ، كما حدث ذلك بالفعل ، وخراجها ونيلها ووداعة أهلها تضاف الى الأسباب التي حملت الخلافة على الاهتمام باختيار ولايتها . فهذا هو معاوية يعقد مع عمر بن العاص عقدا يتولى بمقتضاه عمرو ولاية مصر على أن يكون له خراجها طعنه بعد عطاء جندهما والنفقة على مصلحتها(٢) : وينفذ عمرو العقد فقد كان يتمنى هذا الأمر ويرجوه ، بل قد فضله صراحة حين استشار ابنه فيه فقال أحدهما : ان لك سابقة وعهدا وصحابة ورأى أن تباعد عن هذا الأمر وتقر ببيتك ، ويقول الثانى : ان معاوية لم يسلك ما سلك الا لرأى وجده صوابا وأرى أنه مستشيرك في أموره وعاهد اليك بأمر عظيم ، فلا تتخل عنه ، ثم يعقب هو على الشورتين فيقول : لقد أشار على الأول بما فيه نفع لأخرتى وصلاح لدينى أما أنت - مشيرا الى ابنه الثانى - فقد أشرت بما فيه صلاح دنياى وتباهه ذكرى ، ثم يحبز رأيه ويذهب الى معاوية ناصحا له متبعا لأمره .

ثم لا يكتفى الخلفاء بأن يعهدوا بالأمر الى أمير ارتضوه ، بل يجهدون في الوصاية اليه بما يرون ، فمعاوية وقد اطمأن به الأمر باسناد الولاية

الى عمرو لا يتركه الا وقد أوصى اليه ، ثم يتدارك ويقول له ان لك رأياً ونفاذ بصيرة فاعمل بما يهديانك اليه .

وعبد العزيز بن مروان يقول لأبيه بعد أن استخلص مروان مصر وولى عليها ابنه يا أمير المؤمنين . كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فيجيبه : يا بنى ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أببك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وادفع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غيره وينقاد قومك اليك (٢) ، ثم يوصيه عند خروجه بما يوصى به الرؤساء رؤوسهم من لزوم طاعة الله والوقوف عند أمره والاهتمام بأداء الصلاة في أوقاتها المفروضة ولا ينسى أن يبصره ببعض أصول الحكم فيقول : وأوصيك ألا تعد الناس موعداً الا أنفذته وان حملت على الأسنة ، أوصيك ألا تجعل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فان الله (عز وجل) لو أغاثني أحداً عن ذلك لأغني نبيه (ص) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه ، قال الله « عز وجل » وشاوروهم في الأمر (٤) .

بمثل هذا كان يوصى الخلفاء أمراءهم ومن يعهدون اليهم مع ما توافر فيهم من صفات الكياسة والحزم ورجاحة العقل واستئصالهم لما ندبوا اليه حتى اذا تسلموا ولايتهم وأقيمت لذلك المراسم المعتادة من استقبال الناس لهم في المسجد الجامع ، وقراءة كتاب العهد أمام القضاة والعلماء وعامة الشعب ، وقف الوالى يحمد الله ويشكره ، ويبين الرسالة التي عهدت اليه من قبل أمير المؤمنين ، ويشرح السنة التي سيسئنها والطريق التي يسير عليها في حكم البلاد ، مما يعد بمثابة خطبه العرض أو خطاب الحكومة عند بدء توليها أمور البلاد في وقتنا الحاضر مع رعاية الفروق .

وفي ذلك يخطب عتبة بن أبى سفيان والى مصر من قبل أخيه معاوية ، ويقول : يا أهل مصر - قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم الجور لكم ، وقد وليكم من أن قال فعل ، فان أبيتم درأكم بيده ، فان أبيتم درأكم بسيفه ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناده المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فنادهم عدلاً عدلاً (٥) .

ثم ينصرف الوالى الى أعماله فيختار لشروطه من يثق به ويعرف ميله

(٣) الولاة ص ٤٧

(٤) الولاة ص ٤٨

(٥) الولاة ص ٣٥

اليه وتفانيه في طاعته ويقر حكام الأقاليم أو يعزلهم ويولى من يرى أنهم أصلح لهذا الأمر دونهم ويهتم بالقضاء ، فيستشير الخاصة وذوى الفكر ويدرس حالة من يرشح لمنصبه أن لم يجد في المنولى له الأهلية الكافية للاضطلاع به ، أو توفر في ذهنه ونفسه من الأسباب ما يوجهه الى الوجهة الجديدة .

ثم ينصرف الى عمارة الأرض ، واصلاح المساجد ، وبناء الدور وغرس الكروم والنخيل ، ويختلف الى ضروب الاصلاح ومنها ما تصلح به أمور الدنيا وما تصلح به أمور الدين وما يصلح به الدين والدنيا جميعا .

وأذكر على سبيل المثال ذلك البيت العظيم لتعاليم الاسلام في ولاية شرجيل حين يعمد الى الحانات فيكسرها ويريق خمورها ، ويستحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٦) ويصل أمر الخليفة الى حنظلة بن صفوان في ولايته بتكسير الأصنام والتماتيل فيكسرها كلها (٧) ويأمر عبد العزيز بن مروان أن تكتب الدواوين باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بلغة القبط (٨) ويسير شرجيل على نهجه فيزع أيدي القبط كذلك عن المواريث (٩) .

ويمتدح السعراء أعمال الولاة حين تظهر آثار أيديهم ، وثمار اصلاحهم عظيمة الخير ، جزية النفع ويطلقون العنان لقرائحهم أن تجول ما شاء لها أن تجول وقد كان من المتعارف عليه أن يستطلع الوالى رأى الخليفة فيما يعن له من الأمور أن لم يجد المتصرف فيها عند نفسه ، فقد كتب الحر بن يوسف الى هشام بن عبد الملك : انكشف النيل عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن في البناء فيها فان الناس مضطرون اليها . فأذن في بنائها قيسارية أطلق الحر عليها أمير المؤمنين بدأ بنائها في رجب سنة ١٠٧هـ وفرغ منها سنة ١٠٨هـ (١٠) . ويرى الوليد بن رفاع أن مصر تسع وافدين اليها ، وأن وفرة خيرها وخصوبة أرضها نسيمح باستقدام بعض القبائل العربية متى وافق الخليفة وحين ترد أسارة الخليفة بالموافقة يستقدم القبسبة ، وينزلهم بلبيس ، ويبنى لهم ببوتا بها ، حتى بلغ عدد بيوت القبسبة بها خمسة آلاف بيت (١١) .

(٦) النجوم الزاهرة ص ٢٦٤

(٧) النجوم الزاهرة ص ٧٨

(٨) النجوم الزاهرة : ولاية عبد العزيز بن مروان .

(٩) النجوم ص ٢٦٤

(١٠) الولاة : ص ٧٤ ، النجوم سنة ٢٨٨

(١١) الولاة والنجوم : ولاية الوليد الثانية .

ولابد كذلك من نظرة الى حالة الأمن في مصر بوجه عام أيام الأمويين بمصر لترى مدى رضا المصريين بحكمهم ، والانصياع لما أتى الولاة من عمال .

وسكان مصر في ذلك الوقت كانوا فريقين : أهلها الأصليون ويدخل معهم من هاجر اليهم قبل فتح العرب لها وهجرتهم اليها . والفريق الثاني هم العرب الذين اقتحموا البلاد مع الدين الجديد ، ونزلوا جهات مختلفة منها ، فمنهم من أحاط بمقر الولاية ونزل بحماها بالفسطاط ، ومنهم من تفرق في الشمال والجنوب يزرعون ويتجرون ويسلكون فيما يسلك فيه أهل البلاد الأولون .

وطبيعى أن ينتهز بعض الذين لم يرتضوا الدين الجديد الفرصة ليستقوا عصا الطاعة ، ويحاولوا استرجاع الأمر في يدهم وإعادة تقاليد الحكم اليهم وتساعدهم بعض الظروف على التماس أسباب العصيان ، من أعمال الولاة أنفسهم فينتقضون عليهم حدث ذلك مع القبط مرات ثلاث أيام ولاية الأمويين على مصر ، وفي كل مرة كان يدال الوالى فيهم وتدور الدائرة عليهم .

ولعل من بين الأسباب التى ألجأتهم الى هذا الانتفاض ما يلى :

١ - زيادة المقررات عليهم ، فقد كتب عبد الله بن الحجاب الى هشام (وكان أمير الخراج أيام ولاية الحر بن يوسف) أن أرض مصر تحتل الزيادة ثم زاد على كل دينار قيراطا فانتقضت كورة : تنو ، وتمي وقربيط ، وطرابية ، وعامة الحوق الشرقى فبعث اليهم الحر أهل الديوان فأخمدوهم سنة ١٠٧هـ (١٢) .

٢ - احلال اللغة العربية محل القبطية في كتابة الدواوين ، وقد بدأ ذلك أيام عبد العزيز بن مروان .

٣ - احلال كثير من العمال المسلمين محل القبط على الكور وغيرها من الوظائف .

٤ - أمر حفص بن الوليد قسمة مواريث أهل الذمة على قسم مواريث المسلمين وكانوا قبله يقسمون بقسم أهل دينهم (١٣) .

(١٢) الولاة : ص ٧٣ ، النجوم سنة ٢٨٧

(١٣) النجوم : سنة ٣٢٦

٥ - الثورة العامة على المظاهر غير الاسلامية والتي كان من آثارها تحطيم الحانات وازاقة الخمر ، وتكسير التماثيل والأصنام جميعا وغير ذلك مما يدعوا اليه الدين الجديد .

وثورة القبط هذه ، أو ثوراتهم جميعها استطاع الولاة أن يقضوا عليها في غير وقت طويل ولكن هناك من الثورات ما لم يقتصر خطرها على وقت حدوثها ، بل أدت الى المساس بهيبة الولاة أنفسهم ، فقد تصرف حسان بن عتاهية تصرفا غير لائق مع جنده فنقص أعطياتهم وخفض من أرزاقهم ، فثار عليه الجند ثورة تحمل هو عبثها الأول فطرد من البلاد (١٤) وتحملت الخلافة العبء الثانى فمهدت لثورة المصريين على الولاة آخر عهد الأمويين (١٥) .

ثم انضم الى مثل هذه الانتفاضة على الولاة انتفاضات أخرى على الخلافة نفسها حمل لواءها أمير أموى هو عمر بن شهيل بن عبد العزيز بن مروان فأذن ذلك بانتهاء حكم الأمويين على مصر ، بل انقضاء خلافتهم وقد عجل بذلك قرار مروان بن محمد امام العباسيين الى مصر وقت ارتباك الوالى بمصر وانشغاله بأمر شهيل واخماد ثورته .

هذا العرض لحال الأمن في مصر يوقفنا على مدى صلابة الولاة ابان قوة الخلافة وامتداد سلطانها ، بل واستمرار امتلاكهم ناصبة الأمر حتى اللحظة الأخيرة ، ولولا العامل الخارجى الذى أنقض على مروان بن محمد فهرب أمامه الى مصر حتى لاحقه فيها وقضى عليه فيها على يد صالح بن على لولا هذا لاستطاع الوالى أن يقضى على ثورة شهيل كما قضى على غيرها من قبل . فلمصر شأن آخر مستمد من طبيعة أهلها وسرعة مودعتهم للقرب وانصرافهم الى ما هم آخذون سبيله في العادة .

وأرجو الآن أن أطرق ناحية أخرى في هذا الموضوع فألمح الى أسباب عزل الولاة وتنشعب تلك الأسباب وتختلف وتتعدى شخص الخليفة وحالته النفسية تجاه الوالى الى شكاية من الناس أو سوء سيره عندهم ، أو مبالغة في معاملتهم بالرفق فيستمرىء المغرضون ويعيثوا فسادا ، وتسير الأمور الى غير الجادة ، ولا يخلوا الأمر من الدسائس تحاك والوشايات تصل الى مسامع الخليفة . فنجد منه أذانا صاغية ، ونفسا مصدقة ولكنه يصدر أمر العزل

(١٤) النجوم : سنة ٣٣٣

(١٥) النجوم : سنة ٣٣٤/٣٣

اتقاء الشبهات وقد يكون لتولى خليفة مكان آخر ، وتداول السلطة بين شخصين مختلفي الأهواء والأمزجة - وهناك أمثلة واضحة على ذلك مستمدة من حياة الولاة على عهد الأمويين ويكفى أن أسوق هنا بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر .

وغنى عن التأكيد أن تداول شئون مصر بين الولاة من عهد سيدنا على كرم الله وجهه الى عهد معاوية بن أبى سفيان ثم من الأمويين الى عبد الله بن الزبير ، ثم منه الى الأمويين مره ثانية لم تجعل شئون الولاة مستقرة على حال ، فلم يأمن أحد من هؤلاء أن يكل أمر الولاية - فى مصر خاصة - أن ليس بينه وبينه عهد ، ومن لا يطمئن الى رأيه وهواه فقد تلقى قبيس بن سعد أمر العزل من سيدنا على لكيد كاده به معاوية بطريق غير مباشر وأن معاوية تخلص من الأشر بحيله غير كريمة لأنه لم يكن يأمن جانبه ويخشى ألا يسرع بإسناد الولاية اليه فيما أراد معاوية لنفسه ، والأمر كذلك حين يسود أمر ابن الزبير وحين تنتزع منه السلطة لتعود الى الأمويين .

ومثال آخر لناحية من النواحي التى أسلفتها : عهد أمر الصلاة والولاية العامة على مصر بعد الوليد بن رفاعه الى عبد الرحمن بن خالد الفهمى ، فیسوء حظه ، ويغزو الروم مصر ، ويأسرون من أهلها كثيرا ويقتلون آخرين فتكتب فى صحيفة أعماله صفحة شديدة السواد ، ثم يزداد حلمه بالناس ويغرق فى اللين فيضاف الى صحيفة أعماله نقطة أخرى تكون عاملا مباشرا فى أقصائه عن الولاية .

وهذا مثال ثالث لناحية أخرى ، ويبين مدى استماع الخلفاء للوشاة وأثر السعاية فى عزل الولاة . حدث عبيد الله بن سعيد بن عفير عن أبيه قال : كان حفص بن الوليد على شرط الحر بن يوسف ، فشكا ، عبيد الله بن الحجاب الى هشام ، فعزل الحر ، وولاه حفص بن الوليد فكتب ابن الحجاب الى هشام يقول : انك لم تعزل الحر اذ وليت حفصا فجعل هشام الاختيار الى ابن الحجاب ، فاختار عبد الملك بن رفاعه وصرف حفص يوم الأضحى ولم يمكث الا جمعتين (١٦) .

فاذا عرفنا أن ابن الحجاب سبب بعض المتاعب للحر ، بما كتب الى هشام عن رأيه فى زيادة الخراج وانتقاص القبط ، واضطرار الحر أن يجمع الثورة ، عرفنا أن ابن الحجاب لم ينصح الخليفة بعزل الحر ، وإنما سعى

به اليه ، وإذا ضمنا الى ذلك أن حفصا كان أمير الشرطة ، وأنه كان المرشح لمنصب الولاية عادة ، بدليل أن الولاة كانوا ينبغيون عنهم رؤساء الشرطة في أثناء غيبتهم ، وأن ابن الحجاب كان أمير الخراج ولا صلة بين عمله وبين ما اختصه لنفسه من الرقابة على أعمال الوالى ، وأن حفصا نفسه قد يكون أفضل سيرة وأطيب أحوثة لو عهد اليه أمر خطير كهذا ، أقول لو أضفنا هذا كله الى بعض لعرفنا مقدار تجنى ابن الحجاب على حفصا ، وعلى سلفه معا .

هذه بعض أسباب عزل الولاة والآن أعرض لوظيفة أخرى لها خطرها ومكانها لاتصالها بأمر الدين وأمر الناس جميعا ألا وهى وظيفة القضاء :

٢ - القضاء :

حين نستقصى أخبار القضاء الذين ولوا قضاء مصر أيام الأمويين لا نجد منهم الا من يضرب بنفسه المثل في العدل والنزاهة والالتزام بالحق والألا من يغار على تنفيذ القواعد التى فرغ من وضعها القادة السابقون ، فإذا حيل بين أحدهم وبين تنفيذ أمر الله ونشر العدالة العامة أثر ترك منصبه على أن يقضى قضاء يميل الى الهوى أو يجنح الى غير العدل فقد حدث يحيى بن عثمان بن صالح قال : « سمعت أبا صالح الليث يقول : انما عزل عمران بن عبد الرحمن الحسينى لأنه شهد عنده على كتاب لعبد الله بن عبد الملك أنه سكر فأراد حده فلم يصل الى ذلك فانصرف عن الحكم » (١٧) .

ولست مجاوزة الواقع اذا جزمت بأن القضاء فى مصر على عهد الأمويين كانت له حرمة المقدسة وسياجه الخيع ، وأن ما عرف الناس من مسئولياته قد جعل كثيرا ممن كان يجب أن يولوا أمره يتأوون بأنفسهم عن تحمل أعبائه الثقالة ، نهيا له واجلالا لعظيم مسئوليته فكعب بن ضنة حين يرفض ولايته فى خوف واشفاق شديدين يبني رأيه على ما جربه بنفسه حين كان قاضيا فى الجاهلية قبل ظهور الاسلام ، ولكن كتاب أمير المؤمنين يرد على عمرو طالبا منه أن يجعل بن ضنة على القضاء ، مبينا أن عصيان أمير المؤمنين عصيان لخليفة الله فى الأرض ولكن عمرو يقتنع برأى ابن ضنة وقد قال له : « والله لا ينجينى الله من أمر الجاهلية ثم أعود فيها أبدا » (١٨) ويثير عليه أن يقبل ريثما يرد أمر أمير المؤمنين بقبول وساطة عمرو فى اطهار ابن ضنة ورأيه .

(١٧) القضاء : ٤

(١٨) القضاء : ٤

ويتعاون الأمراء والشعب جميعا على رعاية القضاء وتفديسه وحين
يرفع الى عبد الله بن أبي السرح أمر نفر من جزام ، يقول للمختصمين
ارتقوا الى القاضي عثمان بن قيس فلتجده مستضعا بحمل أنقالكم(١٩) .

وهذان المتلان قريبا الصلة بالعهد الأموي بمصر ويشيران من قريب
الى ما نحن بصددده ومسيره الولاة الأمويين أنفسهم ، وتتبع سلوكهم مع
القضاة يؤيد هذا الأمر كل التأييد فلم يحدث أن واليا أستن سنة الخلاف
للقضاء والاستطالة عليهم أو التعرض لقضائهم بنى من التغيير والتبديل
فيما عدا هذا الحادث الشاذ الذى سبق أن أشرنا اليه وليس عليه قياس
كما يقول العلماء ذلك أن عمران بن عبد الرحمن الحسنى القاضي شهد عنده
على كتاب لعبد الله بن عبد الملك الوالى أنه سكر فأراد حدة فتدخل
عبد الله لمنع الحد ، فقال عمران « لا أقضى أو أقيم عليه الحد وأنصرف
عن القضاء »(٢٠) .

وببالغ القضاة فى احاطة مناصبهم بما يصون كرامتها وفى الالتزام
الشديد بكل ما يحفظ للناس حقوقهم ويطمئنهم عليها ، ولذلك فقد كانوا
يمنعون الوساطات والشفاعات مهما كان مصدرها ، ومهما كانت منزلة المتقدم
بها من القاضي وقربه منه : فقد حدث عبد الله بن لهعة أن توبه لما
ولى القضاء دعا امرأته « عفيرة » فقال : يا أم محمد أى صاحب كنت لك ؟
قالت خير صاحب وأكرم . قال فاسمعى : لا تعرضين لى فى شىء من القضاء
ولا تذكرينى بخصم ولا تسألينى عن حكومة فإن فعلت شيئا من هذا فأنت
ظالنى . فأما أن تقيمي مكرمة وإما أن تذهبي ذميمة « . فلا تكتفى أم محمد
بالاستماع والاستجابة بل تبعد كل شبهة وتحذر غاية الحذر ويحدث
لراوى عن ذلك فيقول : فانتقلت عنه فلم تكن ثانية الا فى الشهر أو الشهرين
وإن كانت لترى دابة قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها أن تمتد خوفا من
أن يدخل عليه فى يمينه شىء(٢١) فيسد ثوبه هذا الباب الذى يظن سهولة
الولوج منه الى ذمة القاضي ، والتأثير عليه بوساطته ، ولا يوجد لخصم
مطعنا أو لريبة مظنة . وهكذا نجد القاضي قد توافر فيه ما يجب أن
يتحلى به من صفات التقى والوروع والنزاهة وصدق طوية وعفة طعمه ،
ويقول ابن خزامر القاضي : ما أقدمت على القضاء شيئا الا جوزتين ، فلما
صرفت تصدقت بها وتشرب نفس غوث بن سليمان راوى هذا الخبر عنه
الى معرفة مصدرهما ويقول : وددت أنى علمت من أى وجه صارت اليه ؟

(١٩) القضاء : ٤

(٢٠) القضاء : ٥٢٥

(٢١) الولاة : ٣٤٣

هذا كان بالإضافة الى علم واسع. والقيام دقيق بأمور الدين وحسن تصرف ودقة اجتهاد مع تواضع جم ، وخلق عظيم : حدث عبيد الله بن أبي جعفر أن عباس بن سعيد دعاه مروان فقال له : أعلمت الفرائض ؟ قال : لا ، قال أفتمع القرآن ؟ قال : لا . قال فكيف تقضى ؟ قال : ما علمت قضيت به وما جهلت سألت عنه . قال له أقضى بهذا ، ثم أن مروان سألته بعد ذلك عن فريضة فأصاب وسأله عن مسألة في الطلاق فأصاب وسأله عن شيء من القرآن فأصاب ، فقال مروان : عبا دالله . ألا تعجبون من عباس زعم أنه لا يحسن الفرائض والقرآن ، ولكن المؤمن هدم نفسه (٢٢) .

صلة القاضي بالخليفة والوالي :

بينت من قبل أن القاضي كان يستمد ولايته من الخليفة أحيانا ومن والي أكثر الأوقات ، كما بينت أن هذين الشخصين وحدهما هما اللذان كان لهما حق استلاب الولاية منه وليست صلة القاضي بهما على هذا النحو الإداري البحت ، فمنصبه خطير وأمانته تستدعي الرجوع الى من يستمد منه الولاية فيما يعرض له من معضلات لا يرى أن يستقل وحده بإصدار رأيه فيها وتحمل تبعاتها ، ومن ثم فإن القاضي كان كثيرا ما يرجع الى الخليفة ببدله الرأي والمشورة ويطلب الفتيا بما للخليفة من الولاية العامة على المسلمين جميعا ، وما يملك من سلطان وما يجتمع في مجاله من علماء وفقهاء وما يرد اليه من الأمصار من فتاوى وآراء تمكنه من أن يصدر حكمه وأن ينفذ قضاءه ولا يجد القاضي في ذلك حرجا عليه ، كما لا يجد الخليفة في رجوع القاضي مطعنا في علمه أو نقصا في اطلاعه أو قلة في درايته ، أو عجزا عن التصرف المناسب فيما يصادقه من مشكلات ، بل يرحب بذلك كل الترحيب ، وتزيد منزلة القاضي لديه .

وقد تدعو أمانة القاضي وفراسته ، وسعة علمه ، الخليفة الى أن يرجع اليه في بعض قضايا الدين يسأله رأيه ويستفتيه فيها فإن أصابت فتيا القاضي الحجة ولزمت الصواب واتجهت الى الحق والانصاف سر لها الخليفة وأظهر رضاه بها ونشرها في الامصار يحمل القضاة على العمل بها والسير على مقتضاها . وكتاب القضاة للكندي ، وكتب أخرى غيره ، تذكر كثيرا من مسائل تداول فيها الخليفة والقاضي واستفتى فيها أحدهما الآخر .

حدث توبة بن غفران أن عياضا كتب الى عمر بن عبد العزيز في صبي اقترح حبيه بأصبعه فكتب اليه عمر أنه لم يبلغني في هذا شيء ، وقد

جعلته لك فاقضى فيه برأيك فاقضى على الغلام بخمسين ديناراً (٢٣) وحدث الليث أن عمر بن عبد العزيز كتب - بسم الله الرحمن الرحيم - من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عياض بن عبيد الله - سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد - فانك كتبت تستأمرني في فلانة نفر بلغك من شأنهم ما لم يكن لك يد في رفعهم الى - الخ (٢٤) - وهكذا تتأكد الصلة العلمية والروحية جميعا وهي أقوى من صلات الإدارة وأعود بالنفع وأدر للخير .

مكان القضاء ووقته :

لم يكن للقاضي مجلس خاص تعدده الولاية وتحوطه بدظار خاصة تجلب له الرهبة أو تضفي عليه نوعا مستكرها من التقديس ، فالقضاء رهيب في ذاته يخشى منصبه ، وتهاب مكانته ولا يحتاج الى مزيد مستجلب لا يفيد ، بل قد يسيء اليه وانما تحدث الرواة أن القاضي كان يتعرض للقضاء في منزله أحيانا ، أو في المسجد الجامع ويفيد اليه المتخاصمون يعرضون قضاياهم ويحكمونه فيما يشجر بينهم ، ويحدثون أيضا أن وقته كان للمتخاصمين جميعا ، فحيثما جلس القاضي ووفد اليه الخصوم استمع اليهم وقضى بينهم ، وقالوا : كان خير بن نعيم يقضى في المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصاري . وحدث خلف بن ربيعة عن أبيه عن جده الوليد بن سليمان أن خير بن نعيم كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصمين من الكلام (٢٥) ولكن أبي كان يحفظ القاضي سجلاته ؟ أغلب الظن أنه كان يحفظها لديه ، ويسلمها السلف الى الخلف وأرجح ذلك نظرا لقلة تلك السجلات ، فقد ورد خبرا يفيد أن ورثة تخاصموا الى سليم بن عنز النجيمي ، فقضى بينهم ثم اختلفوا فقضى بينهم وكتب بقضائه سجلات استشهد عليه شيوخ الجند وحفظه عنده وما دام القاضي لا يلجأ الى السجلات الا عند الضرورة الملحة فالسجلات اذا قليلة لا تستدعي ديوانا خاصا تحفظ فيه ويقوم عليه الحفظة المختصمون (٢٦) وحدثوا كذلك عن عبد الرحمن بن معاوية أنه أول قاض نظر في أموال اليتامى وضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابا وكان عنده (٢٧) .

(٢٣) القضاء : ٢٩

(٢٤) القضاء : ٣١

(٢٥) القضاء : ٤٤

(٢٦) القضاء : ١٠٠

(٢٧) القضاء : ٢٢

وهذا الخبران ان كانا لا يؤكدان ما ذكرته من أن القاضى كان يحفظ لديه سجلاته فيهما لا يثبتان غيره ، وسيظل هذا الرأى حتى أعثر على ما يخالفه فى غير المصادر التى رجعت إليها فى هذا البحث وهى غير قليلة .

بعض الإصلاحات التى استحدثتها القضاة :

من الفقرة السابقة يتضح لنا أن القضاة فى مصر على عهد الأمويين استحدثوا أمرين جديدين . لم يكونا مألوفين من قبل وأولهما أن يكتبوا سجلا بقضائهم يشهدون عليه بعض الرجال المعروفين حتى يكونوا حجة على الخصوم الذين يلج بهم العناد ويدفعهم اللجاج الى استنتاج الأحكام السابقة وعدم الاذعان اليها ، وأن فى أعداد سجلات تكتب فيها أحكام القضاة تذكيرا للقاضى نفسه وتنبيها له الى ما قد سبق أن قضى به وحكم خاصة اذا قيد مع الحكم ظروف الدعوى وأقوال الخصمين والشهود جميعا ، ولست أدعى أن هذه السنة أصبحت ملزمة لهم فى جميع القضايا ، اذ ليس عندى من النصوص ما يسمع لى بذلك ولكن غاية ما أرجحه أنهم لزموا ذلك فى بعض القضايا التى يغلب على ظن القاضى أن احاجة تقضى بها كان يرى من الخصم عنادا أو لجاجا أو يتعدد الخصوم حتى لتشيع بينهم الدعوى ويخشى على الحق أن يهدر وعلى رأى القضاة ، « أن يتناسى » والخبر المروى فى الفترة السابقة يحتمل كل ما قلته هنا فانه ينص على أن : « اختصم ورثة الى سليم بن عنز النجيبى فقضى بينهم ثم اختلفوا فقضى بينهم وكتب لقضائه سجلا أشهد عليه شيوخ الجند » وهو أول قاضى سجل سجلا بقضائه فى الاسلام (٢٨) ولا بد أن القضايا التى تستلزم سجلات قد كثرت وأن أمورا أخرى قضائية قد ابتدعت حتى يضطر القضاة الى اتخاذ الكتاب والاكثار منهم ليستطيعوا النهوض بأعمالهم المتزايدة ، وقد أتاح ذلك الفرصة لنفر من الكتاب أن يقدموا بعضا على بعض لقاء مكافأة أو رشوة مما أدى الى ضجر المتقاضين مما استحدث الكتاب من البدع المنكرة فيجأرون بالشكوى ويضيعون بها ويصل أمر كتاب أحد القضاة الى الخليفة هشام فينفذ أمره الى الوالى بعزله واقصائه واختيار قاض أمين نزيه يصلح لقضاء الجند .

والأمر الثانى الذى لاحظناه معا فى الفقرة السابقة هو المحافظة على أموال اليتامى والسهرة على رعايتها بما يعود على اليتيم بالنفع ، وهذا يقابله فى قضائنا الحالى . المجالس الحسبية فى مصر . وقد قضى النظام المستحدث أن يوكل أمر أموال اليتامى الى شيوخ القبائل بعد الاشهاد عليهم ولا بد أنه كان يشترط عليهم بعض الشروط التى تكفل رعاية ما استحفظوا عليه . والقرآن الكريم قد وضع عليهم بعض أسس القيمة لرعاية تلك الأموال

فلا يتوقع أن يستحدث شيء يزيد على ما في كتاب الله من الأحكام ، ولكن المستحدث هو النظام الذى يكفل للقاضى الهيمنة على أموال اليتامى والاطمننان على سلامتها وتنميتها •

وأمر ثالث هام أشير اليه فى ايجاز ، ذلك هو الاحباس (الأوقاف) فقد خاف عليها توبة بن نمر أن يسلك بها ما يفرر لها ، أو يغرى مرور الزمن القائمين عليها أن يتوارثوها ويمنعوا بذلك صرفها الى مستحقيها حدث ابن لهيعة قال : أول قاض بمصر وضع يده على الاحباس توبة بن نمر فى زمن هشام وانما كانت الاحباس فى أيدي أهلها وفى أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظا لها من اللتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار للاعباس ديوان عظيم (٢٩) •

والأمثلة الثلاثة السابقة توقفنا على ما كان يتمتع به لاقضاة من نضج عظيم وتصرف حسن يؤهلهم لما يسدى اليهم من تقدير واعظام •

مرتب القاضى :

من المعروف أن مسألة المكافأة على القضاء والتدريب والفتيا وغيرها من الوظائف التى تتصل بأمور الدين تجد خلافا كبيرا بين الأئمة ، فهى عند بعضهم مهام يجب على من يلمون بدقائقها أن يقدموها لجهودهم حسبة لله وطاعة لأولى الأمر وخدمة لجمهور المسلمين بينما يرى جمهور الأئمة أن ذلك قد ينزل المتولين لها منزلة غير لائقة تذهب بما لهم من كرامة وتضع من أقدارهم اذ تلجئهم الى التعرض للناس وتقبل هباتهم ، ومن ثم ووجهوا بيت المال أن يتكفل بأرزاقهم وأرزاق من يعولون حفظا لكرامتهم من أن تمس وهكذا المهام ألا تجد من يشغلها ويرعى أمرها ويسهر على شئونها ، والى هذا رأى مال ذوو الأمر فجعلوا مرتب القضاة فى بيت المال يتقاضونه مقدما ، حتى يطمئنوا الى أرزاقهم ولكن بعض الخلفاء كان قد بلغ بهم الزهد مبلغا عظيما ، فقد تحدث الرواة أن القضاة على خلافة عمر بن عبد العزيز كانوا لا يتقاضون أجرا وكان بعضهم يتجرون فى أوقات فراغهم ليحصلوا على أقواتهم وأقوات عيالهم • حدث سهيل بن على قال : كنت ألازم خير بن نعيم وأجاله وأنا حديث السن وكنت أراه يتجر فى الزيت ، فقلت له : وأنت أيضا تتجر ؟ فضرب بيده على كتفى ثم قال : انتظر حتى تجوع بطن غيرك • قلت فى نفسى : كيف

يجوع الرجل ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال اذ انا أجوع ببطونهم (٣٠)
نقرأ هذا الخبر ونقف عنده . ونضع بجانبه خبرا ثانيا على تساكلته
ولو أننا قد سقتناه من قبل وهو أن القاضي ابن خذامر كان يقول : ما أقوت
على القضاة شيئا الا جوزتين ، فلما صرفت تصدقت بهما .

ولعل هذين القاضيين كانا من معتنقي أول الرايين الذين أشرت اليهما
في بدء هذه الفقرة أو لعلهما كانا كثيرى العيال فكانت لا تكفيهما مرتبات
المال فيتجرا حتى يكفيهما وابن خذامر كان يقصد أنه لم يضمن غير بيت
المال نفعا ما الا الجوزتين وان كان النص عاما يشمل أرزاق بيت المال ،
وهذا الناس .

ولكن يبدو أن بعض القضاة وانتهم الحظوظ وبسط لهم في الرزق
فعبد الرحمن بن حجرة كان راتبه على القضاء مائتي دينار في السنة كما
كان له راتب عن كل عمل آخر تولاه مع القضاء حتى بلغ راتبه ألف دينار
في السنة (٣١) وألف دينار كان يتقاضاها موظف واحد في السنة أجر كبير
من غير شك وان كان أجر أعمال متعددة . ويهمننا من هذا كله أجر القضاة
وحده فهو مائتا دينار في السنة وهو معقول في ظروف الولايات الاسلامية
في عهد جده الدين وقوة وثوق معتنقيه الأول .

وهذا الراتب هو الذى قدرته الولاية للقضاة في اغلب الظن وسأذكر
وثيقة عثر عليها في ملفات الأمويين تؤكد تعيين هذا الراتب للقضاة ،
هذا نصها :

براءة زمن مروان بن محمد : بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن
أبى عطاء (أمير الخراج) الى خازن بيت المال . . فأعطوا عبد الرحمن
بن سالم القاضي رزقه الشهري في ربيع الأول سنة ١٣١هـ عشرين دينارا
واكتبوا بذلك البراءة . كتب يوم الأربعاء ليلة خلاف ربيع أول سنة ١٣١هـ
١٠هـ (٣٢) .

إذا فقد كان للقضاة مرتبات يتقاضونها من بيت المال والأمر يبلغ
مائتي دينار في السنة أو عشرين دينارا في الشهر تقريبا وهو أمر يجب
ألا تقتصر فيه الولاية وألا يتنازل عنه القضاة ، بل يجب أن يقبضوه وأن
يقبضوه مقدما كما تثبت البراءة الأنفة الذكر .

(٣٠) الولاة : سنة ٣٣٩

(٣١) القضاة : ١٥

(٣٢) القضاة : ١٥

وقد كنت أود أن أعرض لعمل خاص يتولاه بعض القضاة ولكن بعيد خاص ، مثل قضاة المظالم والقصاص ولكنى أرى أنهما من أعمال القضاء على كل حال ، مع قليل من الملابس والاختصاصات ليست بذات حدود واسعة تجعل لهما طابعا لا يشترك مع القضاء العام .

ومن ثم أرى أن اكتفى بما ذكرته عن القضاء وما يسرى عليه من قيود ويتقيد به من رسوم يسرى على من يتولون القصاص والمظالم جميعا . وكنت كذلك أود أن أشير الى أن بعض القضاة جمعوا الى القضاء وظائف أخرى مثل الشرطة أو بيت المال والقصاص وكان من يجمع بين تلك الأعمال يجمع بين رواتبها فعبء الله بن حجرة كان ينقد على القضاء مائتى دينار فى السنة وعلى القصاص مائتى دينار ، وعلى بيت المال مائتى دينار ، وكان له الى ذلك عطاء يبلغ مائتى دينار ، وجائزة قدرها مائتا دينار ، فيبلغ جميع ما يتقاضاه ألف دينار فى السنة واسناد أعمال عدة الى شخص واحد أمر مألوف لا يحتاج الى تعليق كثير خاصة اذا كان هذا الاسناد الى رجال موثوق بأمانتهم وقدرتهم على النهوض بهذه الأعمال جميعها فى حسن أداء وكمال تاديه ، ولا يفوتنى أن أذكر أن قصر المدة التى تجمع فيها أعمال عدة الى شخص واحد يبيح هذا الاسناد بل يساعد على فهمه والاطمئنان اليه .

وإذا رجعنا الى ما سبق أن ذكرته عن مصدر العهد الى القضاء أو الولاية والأسباب التى قد تلم ، وتدعو الى عزل الولاية والعهد الى غيرهم - نستطيع أن نستغنى عن إعادة ذكر بعض هذه الأسباب بالنسبة للقضاة - حتى لا نقع فى تكرار لا يفيد ، وكل ما أريد أن أقوله فى هذا الصدد أنه يجب مراعاة الفرق بين طبيعة عمل الوالى وعمل القاضى . وتعدد مصادر استمداد السلطة بالنسبة للقاضى اذ يعيننا كل هذا على الاكتفاء تماما بما سبق ايراده فى هذا الموضوع .

٣ - ولاية الخراج :

كان المتولى لولاية الخراج قابضا على تصارييف السئون المالية فى الولاية كلها فهو فى منزلة وزير المالية فى عهدنا الحاضر وليست مهامه قاصرة على جمع الخراج وحده كما يبدو اذ يصعب أن نفصل بين جمع الخراج وملء خزانة الولاية ، وبين الهيمنة ولو من بعد على ما يجرى فى الولاية مما يستدعى الرجوع فيه الى عامل الخراج . ولو أن هذه الوظيفة كانت تلزم شاغليها ألا يتعدوا قبض المال وجمعه فى الخزائن ما اهتم الخلفاء به الى حد جعلهم يقبلون مصير هذه الوظيفة بين أيدي كثيرة ما دامت مهمة المتولى لها لا تعدو

حد الجمع والحفظ وانما أميل الى هذا الذى ذهب اليه لما رأيت من شدة اهتمام الخلفاء بها واختيار من يشغلها ممن يضمن ولاؤه للخلافة وانسجامه مع الولاية وتولى الوظائف الأخرى وأحيانا يكل الخليفة أمر الخراج المتولى أمر الصلاة ضمانا لما يبغيه من عدم الفرقة وتوفر الانسجام الى المغانم الكثيرة التى تنتظر أميرها مما يجعله محط الأنظار وموضع الاهتمام .

ولعل ما ينتظر متولى الخراج من خير ونعمة وفيرة السبل جعل الخليفة يرضى بها الولاية أحيانا حتى يعرضهم عن بعض ما يتوقعون اذ هم اتجهوا وجهة أخرى يريد الخليفة ألا يتجهوا اليها أو يفوته الانتفاع بجهودهم ونتائج أفكارهم وثمرات تجاربهم وهذا نفسه هو الذى حمل معاوية على أن يكل أمر الخراج الى عمرو بن العاص أول عهد أشراف الأمويين على مصر بل أن النصوص الصريحة توضح في بيان وعدم ليس هذا الذى قدمت ، فعمرو بن العاص حين يميل الى معاوية ويفضل الانصواء تحت علمه يجعل لذلك شرطا - ولاية مصر ، وأن يكون خراجها طعمه له ولا ولادة استقرضاء ومكافأة عما أخذ به نفسه من الانصراف عن نصره على والتزامه جانب خصم معاوية - غيضيفها اليه معاوية .

ولعل غير محتاج الى التنبيه على أن متولى الخراج يستمد سلطانه من الخليفة مباشرة بتوجيه أمر الصرف عنه ، للظروف الكثيرة التى تحيط بهذه الوظيفة مما قدمت الاشارة اليه .

أما مقدار الخراج وموعد جبايته فمن الواضح بمكان ، فالدولة الاسلامية والقائمون على شئونها حفظه على الدين قولاهون على رعايته فلا ننظر منهم أن يتجاوزوا حدود ما رسم الدين في هذا الموضوع ، وحين تزين نفس أمير الخراج أن يسير سيرة غيرها فلا يجب أن يخطو اليها حتى يستصدر أمرا صريحا من الخليفة باقرار ما يريد الذهاب اليه ، وحينئذ يتحمل أمير الخراج والوالى العام والولاية كلها والخليفة الثمن غالبا اذ لا تؤمن عاقبة الاقدام عليه .

فان عبد الله بن الحجاب يكتب الى الخليفة هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتل الزيادة ، ويزيد على كل دينار قيراطا تفتقص الكسور ويضطر والى الحر بن يوسف التدخل ليعيد الأمن الى نصابه (٣٣) وينصب عمر بن عبد العزيز حين يكتب سليمان بن عبد الملك الى عامل الخراج يقول أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينعدم (٣٤) ولا يتمالك نفسه

حين يمتدح سليمان عمل أسامة في حضرته ، قائلا : هذا أسامة لا يرتضى دينار ولا درهما فيقول عمر : انى أدلك عن من هو شر منه ولا يرتضى . قال سليمان من هو ؟ فأجاب عمر : ابليس ولا يكتفى بذلك بل بسرعه عصر الى اقضاء أسامة بعد موت سليمان وتسلمه زمام الخلافة وقبل أن يدفن سليمان (٣٥) .

وقد حدد عمر بن الخطاب بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم مقادير الخراج تحديدا صريحا لم يدع معه مجالا لراى أو متنافسا لجدل : وألخص هذه المقادير مجملة مستمدة من كتب فيما يلى :

أراضى العشر ، وأراضى الخراج :

يوخذ العشر من الخارج من اراضى العرب ، وهى ما بين العزيب (٣٦) الى اقصى حجر باليمن بمهرة (٣٧) الى حد الشام وكذا البصرة وكل ما أسلم أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغانمين .

وما عدا ما سبق تحديده من الأرض يؤخذ عنه الخراج : وهو ما بين العزيب الى عقبة حلوان ومن العلت (٣٨) الى عبادان (٣٩) وكذا كل ما فتح عنوة وأقر أهله عليه أو صحوا لحوا ، سوى مكة .

والخراج نوعان : خراج مقاسمة فينتعلق بالخارج كالعشر ويرجع تقديره الى الوالى بحيث لا يزيد على النصف ولا حد لنقصه وبحيث لا يزداد بعد التقدير الأول .

وخراج وظيفة فينتعلق بالأرض : ويؤخذ على كل جريب (٤٠) صالح الزرع صاع من بر أو شعير ودرهم ولجرب بالرطوبة خمسة دراهم (كالثقاء

(٣٥) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٥٨

(٣٦) العزيب : تصغير عزب : ماء لتميم .

(٣٧) مهرة : اسم لرجل أو اسم قبيلة تنسب اليه الابل المهرية وتسكن الهاء أحيانا .

(٣٨) العلت : بفتح فسكون : قرية موقوفة على العلوية وهو أول العراق شرق دجلة .

(٣٩) عبادان : حصن صغير على شط البحر وفى المثل : ليس وراء عبادان قرية .

(٤٠) ستون ذراعا بذراع كسرى سبع قبضات وفى مصر يعتد -
الفدان .

والخيار) ولجريب الكرم أو النخل المتصل عشرة دراهم (نظرا لقلّة المؤنة)
لما سوى ذلك ما تطبق ونصف الخراج غاية الطاقة وإن لم تسقط ما وظف
نقص ولا يزداد وإن طاقت .

ويضاف الى خراج الأرض ضريبة الرعوس وتؤخذ من أهل الكتاب
على الظاهر . الفتي ثمانية وأربعون درهما في كل شهر ٤ دراهم ، وعلى
المتوسط نصفها في كل شهر درهمان ، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها
في كل شهر درهم ، ويعفى غير القادر على الكسب كما يعفى الشيوخ والأطفال
والنساء .

والتجار الذين ينتقلون من جهة الى أخرى يؤخذ منهم ما عرف بعد
الكوس دينار عن كل أربعين دينار من المسلمين ودينار عن كل عشرين دينار
من أهل الكتاب .

فمقادير الخراج اذن وضع الدين أساسها وأوضح معالمها ، وما عمل والى
الخراج الا تنظيم جمعها وبعث العمال في الكور والأمصار ليراقبوا ما كلفوا
القيام به ولا بد أن عددهم يتناسب واتساع الرقعة وعدد القطان وقد
حكى ابن لهيعة أن المرتببين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين رجلا سبعون ألفا
لصعيد مصر وخمسون ألفا بالوجه البحرى (أسفل الأرض) (٤١) وهذا عدد
يتفق كثيرا وطبيعة العمل وخطورته .

ووقت الجباية يبدأ عند بدء الحول ، وإن كانت الجباية تستمر طوله
الى ما قبل نهايته بأيام حتى لا تسقط في بعض الأحوال . وأغلب الأمر أن
العادة جرت أن يقرر ذلك حين وفاء النيل ويعلم مقدار زيادته والأرضى
التي عمها أو انحسر عنها فلكل ذلك أثره في تقدير الخراج ، ويبين هذا
مما ذكره أبو المحاسن عن السعوى . . فان انتهت الزيادة الى ست عشرة
ذراعا ففيه تمام الخراج (٤٢) ، وفي سبع عشرة ذراعا كفايتها ورى جميع
أرضها ، وإذا زاد على السبع عشرة وبلغ الثمان عشرة ذراعا وأغلبها استجر
من أرض مصر نحو الربع وفي ذلك ضرر بعض الضياع لما ذكرناه من وجّة
الاستبحار وغير ذلك (٤٣) .

وتحتاج الى ذكر قليل من مقياس النيل لا يبعد بنا كثيرا عن البحث
ويذكر المقرئى روايات وأخبار يمكن تلخيصها في أن أسامة بن يزيد بنى

(٤١) النجوم : ٥٧

(٤٢) خطط المقرئى : ٩٥

(٤٣) خطط : ٥٧

مقياس الجزيرة في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان أكبر المقاييس التي بنيت قبل ، وأنه استمر القياس عليه حتى هدمه الماء ، فبنى المأمون غيره بأسفل الأرض وأظن أن أيراد إحدى الروايات التي ذكرها المقرئ لا يخلوا من الطرافة وسأجترئ بها عن ذكر تفصيلات أخرى (٤٤) .

قال ابن عبد الحكم : أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام وضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة أبينة زيا ، وهي صاحبة حفظا بعجوز مقياسا بانصنا وهو صغير الزرع ومقياسا بأخميم ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بطلوان (وكانت محله) وهو صغير ووضع أسامة ابن زيد التنوخي في خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهي أكبرها (٤٥) وذكر هذه الرواية يغنيها عن الإشارة الى المقاييس الأخرى المتعددة التي كانت تقام على النيل من جنوبه الى شماله ومدى اهتمام المصريين منذ القدم بضبط قياس النيل والوقوف على نقصه أو زيادته .

ويبدو أن أسامة التنوخي عرف واجبه حق المعرفة ، فراقب النيل وبنى مقياسه ونظم جباية الخراج تنظيما يكفل ضمان استيفاء بيت المال حقه حتى لا يضيع على المسلمين من ذلك شيء وحتى يقوم الولاية بالاتفاق على المصالح العامة من اصلاح أرض وبناء جسور وحفر ترع ، وبناء المساجد والبرور والقيساريات وغيرها ومن أهم ما يضاف الى أسامة كذلك بناؤه بيت المال ومن خلفه سليمان بن عبد الملك كما ترجح الروايات ذلك (٤٦) .

وكان الواجب أن أعرض للحالة المالية في الولاية أيام الأمويين مادامنا بصدد الخراج وجمعه ومتوليه ومصارفه ولكن ذلك ربما يصرفنا عما يجب أن يقصر عليه هذا البحث ، غير أنني أشير الى ظاهرة واحدة - بسبب ما يعانيه العالم الآن - فقد حدث أن أصابت البلاد موجة غلاء على عهد عبد الله بن عبد الملك ، وضجر الناس منها أشد الضجر وبلغ بهم الضيق والكدر أن تشاءموا من ولاية عبد الله ابن عبد الملك وهجاء الهاجون - والدين لا يقر التشاؤم ..

تلك هي المكاييل التي كانت مستعملة إبان حكم الأمويين ، وكانت هذه المكاييل الأردب والكيلة والوبية والقحح ، وقد حاول أمير المؤمنين أن يفوض (٤٧) المدى فلاقى من ذلك صعوبة شديدة أغلب الظن أنها انتهت

(٤٤) خطط : ٥٧

(٤٥) يمكنني أن أكتب لك بعض ما كتب عن الجسور وغيرها اذا وجدت

ضرورة لذلك .

(٤٦) النجوم : ٨٠ والخطط : ٥٨

(٤٧) المدى كقفل مكيال يسع تسعة عشر صاعا وهو غير المد .

المصباح المنير .

برفضه فقد أرسله الى الوليد بن رفاعه الوالى فأمر أن يطاف به على القبائل
فرضى به بعض ، حتى اذا مر به على المعافر ، يرفضه عبد الرحمن بن حويل
بن ناشرة والمعافى ويضرب به الحجر فيكسره ويقول أن لنا ويبة واردها قد
عرفناها ولسنا نحتاج الى هذا .

وبعد ..

فلعلى قد استطعت فى هذا البحث أن أتلو الناحية الادارية أيام حكم
الأمويين لمصر فى الفترة المحصورة بين سنة ٣٨هـ حين قدم الى مصر عمرو
بن العاص فى ولايته الثانية معهود اليه من معاوية بن أبى سفيان وقد استبد
بالأمر سالبا له من الخليفة الشرعى « على » وبين نهاية حكم مروان بن محمد
آخر الخلفاء الأمويين الذى وفد الى مصر فارا من وجه العباسيين الزاحفين
حتى تم لهم الأمر ونودى لهم بالخلافة فى جميع الرقاع الأساسية سنة ١٣٢هـ .

المصادر

- ١ - سنن أبي داود .
- ٢ - سنن الترمذى .
- ٣ - الولاة والقضاء للكندى .
- ٤ - القضاء للكندى (الواقع أنه جزء من الكتاب السابق) .
- ٥ - النجوم الزهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .
- ٦ - البيان والتبيين للجاحظ .
- ٧ - المبسوط للشرخى ج ١٦
- ٨ - أعلام المعوقين لابن القيم .
- ٩ - الأحكام السلطانية للماوردى .
- ١٠ - القضاء في مصر - الفتح الإسلامى الى العصر الحاضر : للأستاذ عطية مشرفة .
- ١١ - الكامل لابن الاثير .
- ١٢ - المواعظ والاعتبار للمقريزى .

الحاكم يأمر المفتى عليه

تأليف

الدكتورة نبوة محمد نصر
كلية التربية - بنها
جامعة الزقازيق

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

كلمة حق

الحضارة في عصر من العصور هي المرآة التي يرى فيها اللاحقون حياة السابقين الأولين ولكل حضارة نبع خاص ومنهل معين . والحضارات دائما تصور مدى تقدم جيل ما وما وصل اليه من مكان وعزة .

وتكون هذه المكانة دائما وأبدا مستندة الى فكر بشري ناضج ناهض مفكر . ولكن الحضارة الاسلامية في حقيقتها تستند أساسا وكلية الى الوحي الالهي الذي أنزله الله على قلب محمد المصطفى صلوات الله عليه ولذا فان حضارة الاسلامية في فجر الاسلام بددت كل الحضارات المعاصرة لها وطغت عليها بل ومحتتها من الوجود ومن الفكر البشري كله لأن هذا الرعيل من البشر كان قد تفهم هذه القيم الاسلامية فهما عميقا حقيقيا بعيدا عن الزيف والغرض ولذا فان الاميراطورية الاسلامية امتدت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بأيسر السبل وبدون ارهاق لأتباع محمد عليه السلام . ان اشراقة فجر الاسلام كانت تطلع كل يوم على قطعة أرض من بقاع المعمورة ، ولقد انتشر الاسلام انتشارا واسعا عند ما سبقت مبادئه الى كل مكان . وما كانت تلك المبادئ القيمة الا العدل والمساواة والحرية الحقيقية التي تتمثل في قوله عز وجل « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

(صدق الله العظيم)

ومن هذا المنطلق العميق القوي بعييد الجذور نبتت شجرة الاسلام وأورقت وأثمرت وأينعت ثمارها واستنزل الناس جميعا مسلمين كانوا أو غير ذلك بظلالها الوارقة .

ولقد عمت الحضارة الاسلامية بقاع المعمورة كلها وبرز محيطها كثير من علماء المسلمين .

ولم في سمائها سيطهم حتى أتوا بما لم يستطعه الأوائل فكانوا أقطاب العالم ومعلميه .

وهذا يرجع الى فهم المسلم لتعاليم الاسلام التي تدعو الى العلم والسعى في تحصيل أكبر قدر منه مهما نأت أماكنه أو بعدت . بذلك سطعت شمس الحضارة الاسلامية على العالم أجمع فبددت ظلمة الجهل .

وعندما ملأ الغرور والخيلاء نفس الانسان المسلم وبعد عن تعاليم هذا الدين وزلت قدمه خبا نجمه وانكسرت شوكته وضاعت هيئته وباء يغضب من الله وولى أمره من لا يخاف الله ولا يرحمه .

د . سوسن محمد نصر

تقدير وعرفان

يقول الله عز وجل : شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » ، ويقول سبحانه وتعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ويقول جل من قائل : « وفوق كل ذي علم عليم » .

(صدق الله العظيم)

وبعد .. فأود أن أكون من بين من يعترف بالفضل لذوى الفضل ومن يؤتى كل ذي حق حقه . وفي مستهل كلامي هذا اود أن أتقدم بالشكر والتقدير لمن أضاء لى نور المعرفة وأنا أضع خطواتى الأولى على طريقها وهو أستاذى الدكتور محمد حلمى أحمد لتتجيبه المستمر وتيسيره الصعاب وتذليله العقبات بعد أن ارتضيت لنفسى السير فى هذا الطريق فقد منحنى من خبرته ووقته وعلمه ما لا أستطيع فى واقع الأمر أن أوفيه حقه من العرفان ولو كان نيل مصر مدادا لكلماتى لنفذ النيل قبل أن تنفذ كلمات شكرى وعرفانى .

وليس من الغرور أو الاعتداد بالنفس أن أزعج أن بحثى هذا يتيسر فى كل فقرة من فقراته وكلمة من كلماته الى مدى الدقة والحذر والأناة فى العرض والتحليل .

لكن من الجحود أن أدعى أن هذا كله وليد جهدى الخاص ذلك أن اللقوجيه الدؤوب الحانى الصبور اليقظ الذى لقيته من الأستاذ الدكتور محمد حلمى هو الذى نفخ فى بحثى هذا من هذه الروح .

نبذة تاريخية

لا ريب أن عصر الدولة الفاطمية كان من أزهى العصور الإسلامية ، فقد جمع بين كثير من أسباب القوة والعظمة والابهة ، كما كانت هذه الدولة السامقة تمثل الزعامة الإسلامية حيث اتخذت صوراً مضيئة ومظاهر خاصة من البذخ والترف والعظمة وطبعت الدولة الفاطمية روح الشعب وعقلية وتفكيره بطابعها الخاص ، وأصبغت عليه منهاجها الاجتماعي الذي يتميز بالطرف والتسامح .

ورقبت الدولة في عهد العزيز بالله أول وزارة وكان الخليفة من قبل يتولى شئون الدولة بنفسه ، وكان أبو الفرج يعقوب بن كلثوم أول وزراء الدولة الفاطمية ولقب بالوزير الأجل . ولما توفي الوزير ابن كلثوم سنة ٣٨٠هـ استبدلت صفة الوزارة بصفة الوساطة والسفارة . وهكذا عمدت هذه الدولة إلى الابتكار والتنسيق في تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقاً لحاجتها وغايتها السياسية والمذهبية فأُنشئت الدواوين المختلفة كما نفعل في وقتنا المعاصر فكان لها ديوان الإنشاء وديوان الجيش وغيرهما من الدواوين للنظر فيما يختص بالأقاليم التي تتبعها الديريات في الوقت الحاضر .

ولقد تأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم ازدهرت فبسطت سلطانها على كثير من الولايات العباسية . والفاطميون يرجعون نسبهم إلى الحسين بن علي وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكن كثير من المؤرخين ينكرون عليهم هذه الدعوة ويرون أنهم أدعياء لا يمتون بصلة إلى آل علي رضوان الله عليه ، وإنما تسربلوا بلباس التشيع والإمامة ليكسبوا عطف العالم الإسلامي .

وبينما كانت الدولة العباسية تجتاز مرحلة اضطراب وخوف ، كانت الدولة الفاطمية بالمغرب تتألق في سماء النماء والازدهار ، كما كانت القبائل البربرية تشد أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، وتحفظ في هذا الفقر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تيار الحضرة والنعماء والترف . ولقد عاصرت الدولة الفاطمية الفتية على تقويض لأغاثم الدولة العباسية وانتزاع الزعامة والإمامة منها ، وفي ذات الوقت تراءى لها من خلال القفس الخائى مصر كحدرة خضراء اكتمل لها من أسباب الخصب والغنى ما يجعلها أصلح مركز لتحقيق غاياتها ونيل أمانها .

حاول الفاطميون الاستيلاء على مصر ، فزحف عبيد الله المهدي أول خلفائها عليها واستولى على برقة والاسكندرية ولكنه ارتد عنهما أمام جند مصر عام (٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) .

ورغم أن الأحوال بمصر كانت قد استقرت في بداية عهد الدولة الاخشيدية واكتملت قواها الدفاعية فان الفاطميين لم ينبذوا فكرة فتح مصر ، ففي سنة (٣٣٢ هـ - ٩٤٤ م) بعث الحاكم بأمر الله ثاني خلفاء الفاطميين جيوشه الى الاسكندرية تارة أخرى ولكنها ارتدت على أعقابها خاسرة تجر أذيال الفشل والهزيمة .

أخذ ولاة الفاطميين يراقبون الأحوال بمصر عن كثب وأمل ، ولم يخبو لهم رجاء حتى أبان فورة القوة الفتية للدولة الاخشيدية في أول عهدها ، انتظارا لظرف موات وانتهازا لفرصة .

وعندما تطرق الوهن والضعف اليها بعد موت كافور ، ولاح في الآفاق عوامل الانحلال والخور وقد سرت صراعا في عضد مصر المادى والمعنوى ، هذا على جانب ، وعلى الجانب الآخر بث دعائهم بين ربوع مصر وجناباتها دعوتهم ، كما ساعدهم كثير من المصريين وعلى رأسهم رجل من أكابر رجال الدولة « يعقوب بن كلس » الذى فر من مصر الى المغرب ودعا المعز لدين الله - رابع الخلفاء الفاطميين - الى مصر بعد أن وضع أمامه صورة واضحة عن حالها وضعفها واضطرابها فضلا عن غناها وخصبها ، مما أسال لعابه لفتحها . وعنهذ زود الخليفة المعز لدين الله قائده المظفر « جوهر الصقلى » بجيش كامل العدد والعدة والعتاد ، وسرت الأنباء في مصر بمقدم جيش الفاطميين وكانت نفوس أبناء مصر ممهدة لاستقبال جيش المعز لدين الله ، كما كان سواد الشعب المثقف يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية تستظل بلواء الامامة الاسلامية وهكذا وجد الفاطميون عند مقدمهم الى مصر طريقا ممهدا وسبيلا ميسرا وبالرغم من ذلك فان الجيوش الفاطمية خاضت بعض المعارك قبل أن يتم لها الفتح والنصر مع جيوش وفلول الاخشيديين الذين دارت عليهم الدائرة آخر الأمر ولاذوا بالفرار والهزيمة عام (٣٥٨ هـ من شهر شعبان) .

وفي ركب مظفر سار موكب جوهر الصقلى الى عاصمتها المقرر انساؤها وحفر أساس قصره في وسطها ، فكان هذا ميلاد العاصمة الجديدة التى سميت بالقاهرة ، كما وضع وأرسى قواعد الجامع الأزهر ليكون رمزا للدعوة الفاطمية ، ومنبرا للامامة والزعامة الجديدة .

وبعد أن بسطت الخلافة الفاطمية سلطانها وامامتها على المغرب ومصر والشام والحرفين في عهد المعز لدين الله توالى الخلفاء الفاطميون ، العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله موضوع هذه البحثة التى تهافت أن ترد الحق الى أهله وذويه .

الحاكم بأمر الله

من هو ؟

هو أبو على منصور الملقب بالحاكم بأمر الله بن المعز لدين معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي .

مغربي الأصل ، مصري المولد والدار والنشأ ، ثالث خلفاء مصر من بني عبيد ، وسادس من ولى من أجداده بالمغرب وهم المهدي والقائم والمنصور .

ولد بالقصر الفاطمي بقاهرة المعز لدين الله يوم الخميس في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة هجرية والموافق أربعة وعشرين من أغسطس سنة خمس وثمانين وتسعمائة ميلادية .

اختلفت الروايات في نسبه لأمه فقد قيل أنها جارية مستولدة رومية نصرانية من طائفة الملكانية ذات نموذ وسultan إبان حياة زوجها العزيز مما كان له أثر كبير في سياسة التسامح مع الذميين - التي سار عليها العزيز بالله وفي تقوية نفوذهم وتمكينهم من مناصب النفوذ والسلطان . كما يؤيد هذا الرأي ما وصل إليه أخو زوجته النصرانية من توليها منصبين مرموقين بالكنيسة بيت المقدس والاسكندرية .

كما تقول بعض الروايات أن العزيز بالله ترك للحاكم أختين أحدهما - تنقيقة نصرانية هي « ست الملك » وكانت تكبره بنحو خمسة عشرة عاما فضلا عن أنها كانت حازمة عاقلة - قوية الشكيمة صاحبة عزيمة وبصيرة - وكانت مقربة الى أبيها يسمع نصحتها ويأخذ برأيها .

ويقول المؤرخون أنها لعبت دورا خطيرا في حياة الحاكم بأمر الله عجل بنهائيته وموته كما جعل حياته وموته لغزين غامضين .

وقالت بعض الروايات أن أمه هي الزوجة الشرعية - « العزيزية » - المسلمة وكان الهدف من نسبه الى أم جارية للتقليل من شأنه ونسبه وأصله

وهذا الرأي من وجهة نظرنا هو الأصوب والأصدق ويؤيده سلوك الحاكم بأمر الله نحو الذميين عامة والنصارى بصفة خاصة ولو كان له ختولة فيهم ما نكل بهم وما اضطهدهم بهذا الشكل المروع الذي أخذه عليه

التاريخ كما يدعمه ما رواه المؤرخون عن الدور الخطير الذى لعبته أخته من الجارية القبطية فى حياته ومماته .

ولقد نشأ الحاكم جدا فى آرائه مطلقا فى تصوراته منذ نعومة أظفاره وفى صباه ولقد تعلم علوم الشيعة فضلا عن علوم الفلسفة والفلك الذى ولع بهما ولعا شديدا .

ولقد أوكل أبوه العزيز بالله أمر داره ورعايته الى خادمة برجوان الذى كان يدبر أموره والذى أخذ له البيعة على الناس وكان الحاكم بالله قد ولى العهد بتولييه من أبيه فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

تولييه الخلافة :

ببيع الحاكم بأمر الله خليفة فى بلبيس يوم وفاة أبيه وخرج الى عاصمة ملكه فى زينته وفى موكب تحفه مظاهر العظمة والغنى وجمع بين جلال الخلافة وهيبه الموت وفى صباح اليوم التالى جلس على سرير من ذهب متقلدا عمامة مرصعة بالجواهر والذهب واللؤلؤ .

وكان العزيز قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى قد أوصى بولده ثلاثة من أعظم رجال الدولة (١) والذين نشب بينهم الخلاف واشتد حتى ألت الوصايا الى برجوان الذى كان أوثق اتصالا بالخليفة الصبى وأشد تأثيرا عليه وأعظم مقدرة على توجيهه .

استمر برجوان يتنوبا مقعده من السلطان زهاء عامين ونصف عام واستأثره بخروة القوة والحكم يعزل من يشاء ويعين من يشاء وتمادى فى غيه وجبروته فى بغى وصلف شديدين واستبد بكل أمر من أمور الدولة ، ولكن دوام الحال من المحال فما لبث أن تغير الحال وتبدل وتحركت صحوة صحية فى نفس الحاكم الصغير الذى لم يتجاوز عمره الرابعة عشر فرأى أن الخطر كل الخطر فى الإبقاء على مقاليد الأمور بيد برجوان الذى يخطط

(١) أوصى العزيز قبل موته ثلاثة من أكابر الدولة هم برجوان خادمه وكبير خزانته ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة وعهده بالوصاية الى الأول والثانى وكان برجوان قد ربح فى القصر واختاره العزيز وولاه إمارة القصر وخلع عليه لقب الأستاذ « وعهد اليه بمهام الأمور وأولاه ثقة عظيمة » .

الحاكم بأمر الله : ص ٤٤

أنفسه ولم يبق الا القليل من الزمن والخطي للاستيلاء على ناصية الحكم .
بعد أن نزع نفوذ الزعماء المغاربة من الولايات والنغور ووزع السلطة على
نفر من أصدقائه الصقليين الذين يمكن الاعتماد عليهم ويضمن ولاءهم له .

كان برجوان بحجب الأمبر عن الاتصال برجال الدولة ويسدل بينه
وبينهم ما استطاع من أستار كنيفة ، ويرده الى مجالس اللعب واللهو .

وكان برجوان يلعب هذا الدور القذر تحت نظر وبصر أم الحاكم التي
ترى ولدها ينمو ويتزعزع في بؤر الفساد والمعاصي وفي ظل الوصاية .

ولكنها عاجزة عن التدخل لانتشاله مما هو فيه ، ولا حول لها ولا قوة
للأخذ بيده من الهاوية المدبرة له وبه . ولكن الحاكم الصغير رغم حداثة
سنه وصباه فطن الى الخطر الداهم الذي ينصب تراكه حوله ، وأحس بما
يحاك له من وراء الدنيويات واللهو والفجور ، واسترعى سير الأمور اهتمامه
واستلقت نظره وأحس بالخيانة مبيتة في موقف برجوان ، والعمل من جانبه
على الاستيلاء على الحكم والاستئثار بالسلطة وها هو ذا يجعل شئون الدولة
كلها قبضته .

بلغ الحاكم أشده وأتاه الله حكما وعلما ، وأشرف على الخامسة عشر
من عمره ، وأضحى الطفل البريء شابا يافعا يقظا له طموحه وتطلعاته وواسع
آماله ، وما زال برجوان في طغيانه يعمه وعلى طريق الخيانة يسير ، وقد
جمع كل خيوط الحكم في يده وشدها شدا نحو نفسه بعيدا عن الحاكم
مثيرا حوله ضراما من البغضاء والحقد ، شاحذا عداوة خصومه داخل وخارج
البلاط الى العمل على هدم سلطانه وتقويض مكانته .

ولكن عين الله لا تنم فلقد سقط برجوان في الحفرة التي حفرها للحاكم
من قبل بعد أن حاك المؤامرات ودبر الخيانات حول الحاكم ، وظن أن الأمور
مطويات بيمينه ، فأنكب على ملاحيه واندفع الى ملاذه وأعماه الله عما لاح
على وجه الحاكم من علامات اليقظة ، وما وقع في نفسه ، وما ظهر على صفحة
وجهه من مشاعر التبدل والتطور ، واستمر برجوان يعيث في الأرض فسادا
وتفادى في غيه واستهتاره وغرق في مجونه الى هوة سحيقة لا تتفق مع مقامه
ومكانته .

وذهب برجوان الى أبعد الآماد ، فأساء الى الحاكم في كل الآفاق ونقض

أوامره ، ونسى أنه له تابع يجب أن يفعل ما يؤمر ، ولا يعصى له أمرا وتطاول.
على الحاكم الى حد اهانتته واحراجة(٢) والاستخفاف به .

فضلا عن أنه سماه « الوزغة » ونقل ذلك الى أسماع الحاكم ، ولكن.
الوزغة(٣) الصغيرة صارت تنينا كبيرا خطيرا .

ثار الحاكم لسلطانه المسلوب ، وكرامته الضائعة وتحركت في عروقه.
ثورة الانتقام واسترداد سلطته ، والتخلص من الوصي المتآمر ، ودار بخلده
كل صور الانتقام والخلص من هذا الشعبان الضارى ، وبلغت الثورة في
نفسه ذروتها .

وأخذ الحاكم يقلب الوسائل بين عقله وقلبه ولم يجد الا طريقا
واحدا - القتل - ولا شيء غير القتل .

استدعى الحاكم بأمر الله قائد قواته - الحسين بن جوهر - وأوكل
ليه مهمة الخلاص من برجوان - وكأنه قد أحسن الاختيار .

وذاث مساء معلوم ، بعثه الحاكم الى برجوان للركوب معه ، فانتظره
في بستان قصر اللؤلؤة يصاحبه ريدان حامل المظلة فوافاه برجوان هناك
وعندما هم الحاكم بالخروج من باب البستان لقي برجوان نحبه أثر طعنة
قاتلة في عنقه بسكين على يد قائد القوات وجماعة قد أعدت للفتك به.
فاثخنوه طعنا بالخناجر وفصلوا رأسه عن جسده وواروا جنته التراب حيث
قتل في ربيع الثانى ٣٩٠ هـ الموافق أبريل سنة ٩٩٩ م .

صودرت أموال برجوان الجمة الكثيرة الهائلة ، وأفل نجم حواريينه
وأصحابه ، بل واختفوا من الميدان ، وهكذا طويت صفحة الوصاية
بخيرها وشرها وانتهى عهدهما ، ومعها طويت مرحلة من حياة الحاكم ،
وبدأ عهد حديد في الآفاق يقر بذكاء الحاكم وفطنته وآماله الوتابة في
عزم واقدام .

(٢) يقول المقرئى : ان الحاكم استدعاه ذات مرة وهو راكب معه
فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه وفيه الخف تبالا
ويجه الحاكم ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢

(٣) الحية الصغيرة .

السلطة بيمين الحاكم بأمر الله :

بدأ الحاكم باختيار مدير لشئون دولته مكان الوصى الراحل فوقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلی ، ولا ريب كان اختيارا موقفا فهو رجل أريب ولم يكن من بين رجال الحاكم من هو أرفع مقاما ولا أجدر حنكة ولا أحق منه ليتولى شئون الدولة وأمورها ، فاستدعاه الحاكم وأسند اليه الوظيفة الجديدة ولقبه في سجل التعيين « بقائد القوات » .

- وفي نفس الوقت استدعى الحاكم « فهدا » وهذا روعه وأقره في منصبه - فعكف قائد القوات على مباشرة مهامه الجديدة بعاونه خليفته الرئيسي فهد وأصدر أمرا بأن تبلغ اليه المظالم والمهام في مكانه بالقصر .

البداية الحقيقية لعهد الحاكم :

وضع الحاكم رغم حداثة سنه ولم يكن قد بلغ بعد الخامسة عشر من عمره مقاليد الحكم في قبضة من فولاذ وباشر بنفسه أمور حكمه وأبدى في تدبير مهامها وإدارتها نشاطا ملحوظا لفت معه الأنظار .

وفي كثير من الأحيان كان يضع أنفه مع وزرائه فتولى النظر في كل شيء وأثر العمل الجاد الشاق المصنى على اللهو واللعب ، ولم يشده الجاه ولا السلطان الى الترف والنعيم اللذين يتطلع اليهما من هم في مثل عمره وسنه .

كرس الحاكم شبابه وأيامه ولياليه لإدارة سلطانه ودولته فنظم مجالس ليلية لبحث شئون الدولة العامة يحضرها كبار رجال الدولة وخاصتها ، وعمل على اقضاء الأتراك والصقالبة الذين قامت عليهم سياسة برجوان ، وحل مكانهم المغاربة كما كان الأمر من قبل أيام حرب المعز لدين الله .

وعفت نفس الحاكم عن مال الرعية ولقد ظهر ذلك جليا عندما انتقل (جيش بن الصمصامة) والى الشام الى الرفيق الأعلى وقد وفد ولده على الحاكم يحمل بين يديه وصية أبيه التي يوصى فيها بجميع ما له للخليفة ، فرد الحاكم المال الى أهله ومستحقيه وكان مائتي ألف دينار زاهدا فيه ، ولقد كانت العفة صفة أكيدة في الحاكم بأمر الله برزت في مواطن كثيرة . من تاريخ حكمه .

صفاته :

أفاضت الروايات التاريخية وصفاً في بنائه وبنيته فقالوا : كان الحاكم يتمتع بمظهر الجبابة منذ حداثة سنه ، مبسوط الجسم مهيب الطلعة ذا بنية قوية متينة ، له عيان كبيران سوداوان في زرقة ، وله نظرات حادة مروعة كنظرات الليث لا يستطيع الانسان عليهما صبرا ، وله صوت جهورى قوى مرعب يحمل الفزع الى سامعه(٤) .

ويرجع المؤرخون ذلك كله الى أنه كان سليل نسل من جبابة الصحراء الأقوياء وكذلك كان أبوه المعز لدين الله عريض المنكبين قوى البنية متين البنيان فورث الحاكم عنه ذلك كله ولم يبدد من هذا الميراث شيئاً في الملذات أو الشهوات كما يفعل معظم التسباب .

ولقد اختلف المؤرخون في وصف عقلية الحاكم بأمر الله ، وذهبوا مذاهب شتى في وصف تصرفاته حتى أنهم اتهموه بالجنون ولو بحثوا الأمر وتحروا الحقيقة لرفعوا له ذكره ووضعوا شخصه في مكانه الحقيقى اللانى به .

ويجدر بنا قبل أن نتعرض لدراسة وتحليل هذه الشخصية الفذة المهمة أن نتعرض الى دراستها واستجلاء غوامضها ، واستقراء الأحداث وعلينا عرض أعمال الحاكم وتصرفاته ، وما يدور من أحداث داخل وخارج أسرار قصر الحاكم ونلم الماما تاما بروح العصر ونفسيته ، تلك الشخصية البارزة الفريدة التى تجوأت مقعدها من المقام الأسمى بما أفاضت عليه من روعتها ونزعاتها وأنشطتها العديدة الجليلة .

اعتلى الحاكم كرسى الامارة وقد ظهر الفساد فى البر والبحر وانتشرت الخلاعة والمجون بين العامة والخاصة ورأى الحاكم أن ينشل الدولة الفاطمية من السقطة الرهيبة ، والهوة السحيقة التى هوت اليها ويعيد لها مكانتها وذروتها وأن يسمو بالمجتمع الذى يعيش فيه وينتسب اليه ، ولقد كانت هذه الانتفاضة المأمولة فى حاجة الى حزم وقوة بالغين . وقد دعى ذلك بعض المؤرخين والباحثين الى أن يقدموا الحاكم بأمر الله فى صورة رهيبة مروعة مثيرة ، صورة جبار منتقم سفاح للدماء ، طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متردد متناقض البرأى لا يثبت على حال واحدة . شرس جموح ويميل الى الشر خائن وافر الغدر لا يخبو ظمأه الا باراتة الدماء وسفكها ، شخصية مهلهلة بغیضة شاذة خطيرة فاقدة الرشيد عديمة الاتزان يغلب عليها الشر والحقد الأسودان .

وهذا ما قدمته الرواية الكنسية المعاصرة والتي لاقت على يديه اضطهادا مريرا وتعنتا عظيما مما دعى كثير منهم الى الهجرة من مصر .

كما قدمته الرواية الاسلامية بأشد وأعظم من ذلك اذ تقول « كان الحاكم سيء الاعتقاد كثير التنقل من حال الى حال ، وكان مؤاخذا بيسير الذنب حادا لا يملك نفسه عند الغضب فأفنى أمما وأجيالا وأقام هيبة عظيمة وناموسا » .

وكان ردىء السيرة فاسد الاعتقاد مضطربا في جهيع أموره بإمر بالشئ ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه . . . وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح وقتل الصالحاء . وكان الغالب عليه الصلاح وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط (٥) وكان جوادا سمحا خبيثا ماكرا ردىء الاعتقاد وسفاكا للدماء نقل عددا كبيرا من كبراء دولته صبورا وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعب عليها (٦) وكانت حاله مضطربة بين الجور والعدل والظن والطمع والأمن والذسك والبذعة .

وان القارئ لهذه السطور تتملكه الحيرة لهذه الصور المتضاربة التي تضعها فيها المؤرخون ويتناقضها في كتاباتهم الباحثون ولكن المدقق بين سطور هذه الأبحاث والمقالات يستشف عناصر المبالغة كما يتلمس كوامن الحقد والهوى بين سطور المؤرخين والباحثين ، يجد القارئ أن الذين كتبوا هذه المقولات انما قد تناولوا جوانب عجيبة يتبين فيها القارئ عنصر التحامل على هذه الشخصية وأنه لم يتوخى جانب التدقيق والتحقيق ودراسة الظروف والأحوال ، وانما أراد عنصر الاساءة وتشويه الحقيقة والجنوح الى السب والتجريح وهذا ما يجب أن يجافيه المؤرخ اذا أراد أن يصل الى الدرجة السامقة التي يرجوها وينتسدها .

ومن هنا نرى أنه لكي نقف على جانب الحقيقة ونتوخاها ونفهم شخصية الحاكم ونفسيته عبر سنى حكمه وتوليته العرش ولا نسير على خطى الأولين كما سار بعضهم عقب بعض دون دراسة أو تمحيص أو تدقيق .

وان كان الحاكم بدأ قصيدة حياته كحاكم كفرا كما يقولون فأننا نرى أنه في جانب الحق - اذ أن ذكاه الفطري وثاقب فكره وصداق وعيه ، وحسن

(٥) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ١٧٦

(٦) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٦٦ - والنجوم الزاهرة : ج ٤ ص ١٧٨

يقظته رغم حداثة سنه وصباه قد ألهماه بالخطر الداهم الذى يحيط به ويلتف حول عنقه فان برجوان الوصى على عرشه الأريب صاحب الطموح المتطلع الى الحكم المحبر للمؤامرات للوصول اليه المستهتر بالحاكم كان ولا بد قاتله ولكن فطنة الحاكم ويقظته والمعيشة دعته الى العجلة فى قتله وخاصة أنه قد بلغ من سمو المكانة ما قد بلغ وأحاط نفسه بالأعوان والأصدقاء وأهل الثقة توطئة للاطاحة بالحاكم المحجور عليه من صاحب الأمر والنهى .

ومن المؤرخين من قال : أنه فعلا قد تأمر على قتله فتنبّه الحاكم الى ذلك الخطر الذى يتربص به ولم يكن أمامه الا سبيل الخلاص منه .

وإذا أردنا أن نتناول الحادثة الثانية ألا وهى قتل وزيره « فهد بن ابراهيم النصرانى » فان الحاكم لم يقتله عدثا ولا حبا فى سفك الدماء البريئة والتي قدّمتها الرواية الكنسية أيضا والتي جاء فيها « أن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى اعتناق الاسلام وجعلت منه شهيدا كما زعمت أن جثته قد ألقيت فى النيران فلم تحترق ..

ولقد أفاضت الروايات المعاصرة وسارت الروايات المتأخرة سيرتها دون تعقل أو تدبر ساردة الحوادث الدموية المروعة ، واتخذت الحملات المغرضة وسيلتها ومادتها العنيفة لتصوير الحاكم فى صورة الوحش الضارى والحاكم الباغى ، ولقد شاعت الاختلافات من النوادر والنعوت القديحة فتناولها الناس كما تناولها المؤرخون وتندروا بها حتى سارت حقائق وما هى الا أباطيل طمست الحقائق وباعدت بينها وبين الناس ولنتدبر ما يقوله لنا الوزير جمال الدين المصرى عن الحاكم وخطته الدموية ما يلى :

« وكان مؤاخذا بيسير الذنب حادا لا يملك نفسه عند الغضب فأفنى أمما وأباد أجيالا وأقام هيبة عظيمة وناموسا ، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالا متناقضة وأعمالا متباينة ، فكان يقتل خاصته وأقرب الناس اليه وربما أصر باحراق بعضهم أو بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه ، وبني مقبرة عليه وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده .

وأشياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة فيعتقدون أن له فى ذلك أغراضا صحيحة استأثر بعلمها - وتفرد عنهم بمعرفتها - وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفردا تارة - وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طورا وفى البرية أخرى ، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته ، وهو بينهم كالأسد الضارى فلم يزل أمره كذلك مدة ملكه وهى إحدى وعشرين سنة ..

وبهذه الصورة الكنسية والرواية الاسلامية طرت الأقلام عن الحاكم بأمر الله ، وبمنظرة أولى الى هذه الصورة يتضح للقارئ امتعالها وحياتها في غير دقة ولا تدبر ضد هذا الحاكم وهل يطبق الطاغية ويصبر على أن يجسير بين شعبه المغلوب على أمره المقهور المسلوب حقه في الحرية منفردا أمنا ومجيبا لمن يبادره بالكلام كما سيأتى ذكره في بعض الروايات ان الاختلاق والافتراء والتذرع في هذه الروايات بين واضح ولا يحتاج الى تفنيد أو تقنين وهل الهيبة وحدها تصد مظلوما أو مونتورا عن ارتكاب حماقة تقتل أو اعتداء حتى لو أدى ذلك الى اعدامه أو انتهاء حياة أو ازهاق روحه ، وهل يستطيع الحاكم الظالم ولو كان قويا مهيبا أن يخرج على قومه منفردا دون حراسة أو حماية ومن يعصمه من الناس المظلومين والموتورين ، ولكن العدل وحده هو الذى يعطى الحاكم الأمان والى حدود لا الى أبعدا أو كلها . ان عدل الحاكم وحب شعبه له كانا له حارسان صادقان .

ان معامل الأمان الذى يظلل حياه الحاكم بأمر الله هو نتيجة عدله وعظمة حكمه ، وصدق ولايته .

وان دواعى القتل التى أبرزتها الرواية الكنسية وتصدقت بها ، كانت من دواعى وأسباب خفية ومغرضة .

ان صبا الحاكم وحدائة سنه حركت عوامل الطمع البشرى في نفوس عن ولاهم أمر الدولة وسلطانها ، وظنوا أن الحاكم في غفلة يجب انتهاز فرصتها السانحة للاطاحة بحكمه والاستيلاء على السلطة ، ولكن الأمير الصبى الذى لم تلته الدنيا ولا زينتها ، ولم يشغله الا اليقظة والغلظة والذكاء .

وهكذا كان الحاكم أريبا ، قادرا ، متيقظا ، مقوضا لمؤامرات المتآمرين .

ولقد أبرزت أيضا الروايات الكنسية ادعاءات عجيبة فأصبغت على القتل من غير المسلمين صورة عجيبة بعيدة عن التصديق قريبة من الخيال جزمها أن جنة وزيره فهد لم تحترق وهل يجوز ذلك في عصر انتهت فيه المعجزات ولم يبق الا الخرافات وما هذا الا دليل واضح على افتراء المغرضين على الحاكم بأمر الله .

ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن واقع هؤلاء الأعوان وتطلعهم الى الاستيلاء على الحكم وشبهوتهم الجامحة للقبض على زمام السلطة والحرص على استبقائها بشمتى الوسائل كان حديث المجتمع وقتئذ كما كانت سير هؤلاء

الأعوان تلوكها الألسن وهذا دعاهم الى الصمت عندما تقتلهم الحاكم ولو كانوا على مستوى حب الجماهير ورضاهم لثارت ثائرة الشعب حزناً عليهم وألماً من أجلهم ولكن التاريخ لم يذكر لنا مثل هذه الثورات التي نعهدنا ونقرأ عنها في كل عصر يتوجه الظلم والطغيان .

الحاكم وأسلوب الحكم :

طالع علينا المؤرخون بتناقضات جمة وأن التاريخ لم يذكر مثل هذه التناقضات عن حاكم كما ذكر عن الحاكم بأمر الله وحكموا عليه بدون تراث وحمل عليه الأولون حملات مغرضة وسار على خطاهم من جاء بعدهم من غير تراث أو تمحيص ومن أقوال المعارضين :

« كان الحاكم ظلوماً سفاكاً للدماء ، غليظ الطبع لا يعرف قلبه الرحمة ولا يخطر على فؤاده الحنان - وكان لا يستقر على أمر كريشة الريح » .

ويقول ميخائيل شارووبيم بك :

وصفت الأمور للحاكم فكثير شره ، وكبر ظلمه ، وعظم افساده وطغيانه وكان لا يستقر على أمر من الأمور وكان له في كل ساعة شأن .

كما يقول دكتور عطية مشرفة . . « كان شاذاً في طباعه اذا عاقب أفرط وسفك الدماء واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله خليفة من قبل وكانت أعماله متناقضة يفعل اليوم ما ينقضه غداً ومن أحسن أعماله أنه شيد دار الحكمة وأنه أنشأ مرصد في سطح المقطم » .

ومن هنا نرى أن مقالات المؤرخين ما هي الا عبارات انشائية نقلت عن أسلافهم وافتراءات خيالية يفتقصها الدليل القاريخي الذي يبحث عنه دائماً المؤرخ والباحث .

وواقع الأمر بعد استقراء الأحداث ودراستها أن الحاكم بأمر الله كان فريد عصره ووحيد نسجه وعقلية فذة وقريحة مفرطة وقادة ، وذكاء جم ولم تكن تلك التناقضات التي قدمها لنا المؤرخون الا روايات تصلح للمسرح والتمثيل والاستخفاف بعقول البسطاء المخمورين واللاهيين على موائد المنكر والشراب .

إن الحاكم كان ذهنًا متوقفاً بعيد الغور وافر الابتكار كان عقلية تسمو على مجتمعهما وسبقت عصرها وزمانها بمراحل ومجمل القول كان عبقرية وقادة تبوأ مقعدها من ذروة التاريخ ومكانها عند القمة . ولو كره المخترون .

الحاكم والراسيم (٧) :

كان الحاكم مولعا بالليل وسكونه تنغوبا به ، يعضد مجالسه فيه . متخذا من السكينة مجالا للتركيز والتدبر وهدوء التفكير كما كان يواصل الركوب كل ليلة ويقوم الليل الا قليلا يجوب الشوارع والأزقة متفقدًا حال الرعية يزور كل ليلة حيا ويجوب عدد غير قليل من الطرق والدروب مستطلعا أحوال أمته محتكا بالجماهير مثلما المتاعب فيمحها يسأل الناس عن قرب ودنو لا يمنع مخاطبا ولا يهمل ساكيا ولا يصد راعيا كان الحاكم يراقب الله في مسئوليته التي حملها القدر عاتقه وانقضت ظهره . أما كان يفعل ذلك بن الخطاب رضوان الله عليه من قبل ؟

يعيبون على الحاكم والعيب فيهم ، وما للحاكم عيب سواهم .

أنسى الناس أن الليل لله قسم عظيم والحق يقول :

« والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلّى » . . كما يقول جل علاه .

والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس » . . (صدق الله العظيم) .

ولقد أدى اهتمام الحاكم بالليل أن صعدت الأوامر فغلقت المضابيح وأضيئت الطرق والخوانيت فبدت المدينة كأنها قبض من نور يشع ضوءا وحياة .

« وهل تستوى الظلمات والنور ؟ » « ان أكثر الناس لا يعلمون » لقد كانت لجولات الحاكم الليلية مزايا جليلة ، فقلع الفساد الذي استقرى في الأرض ، والفسق الذي خيم على المجتمعات وقتئذ ، ولاحظ قوة التيار الجارف للمجون والغواية ، لقد أصبحت القاهرة التي بناها جده المعز لدين الله تعج بالمعاصي والآثام ، وتصخب بالملاهي ويغمرها الانحلال كما أضحت مرتعا خضبا للشيطان وانتشر بين القوم من يحبون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين وتبرج النساء ليبدوا زينتهن لغير بعولهن وخرج الناس عن حدود الله وتعدوها وظنوا أنهم يحسنون صنعا .

فامتدت يد الحاكم لتغيير ما بالشوم فضرب بيد من حديد ليمحوا الفتنة وصدرت المراسيم لتصد الغواية ولم تأخذه رحمة في دين الله فغوقب المخالف بشدة ولما استقام الأمر وهذات حدة البغى وتوارت الرذيلة أعاد الأمر الى نصابه والحق الى أصحابه وعدلت المراسيم وما ذلك الا فكر ضائب وحكمة بالغة « أو ليس لكل مقام مقال » لقد أتى الحاكم

(٧) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ - الأنطاكي : ص ١٨٦ ، ص ١٨٧

الحاكم بأمر الله ص ٦٥ - المقرئ : ص ٤ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠

بما لا يستطيعه الأوائل وسبق عظماء وعقلاء عصره ومن هم بعد عصره وكأنه كان ينظر الى المدينة الحديثة من وراء الحجب والأستار وبتأقّب نظره يجد عوامل الزمان والمكان .

وهل يفعل المعاصرون غير ما فعل ؟ أفلا يعقلون ؟

ومن المراسيم التي أخذت عليه وتشدق بها المؤرخون واعتبرها دربا من دروب الجنون المالنوخوليا « حرم دخول الحمام بلا مؤذّر وحرم التزيّن والتبرج كما حرم البكاء والعويل وراء الموتى كما حرم شرب النبيذ والخمر حيث أريقّت وكسرت أوانيها وشدّد على بائعيها وبسّد كل ما في حوانيتهم ومحلاتهم ودهمت أماكن الفسق والعرايا والبغاء وأزيلت دورها وأوكارها وظهرت أحياء المدينة من أماكن الزلل .

وأمر بقتل الضال من الكلاب وتتبعها أينما وجدت الا كلاب الصيد وأبيدت الخنازير بكافة أنواعها وأشكالها عن آخرها .

وصدّرت مراسيم بمنع النساء من زيارة القبور وحرم صناعة التنجيم والكلام فيها ونفى المنجمون من سائر المملكة وعفى عنهم بعد أن استغاثوا بقاضي القضاة الذي عقّد لهم التوبة فتأبوا كما فعل مثل ذلك مع المغنيين والمطربين فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة .

ومنعت النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الشوارع والطرق متبرجات كاسيات عاريات ولم يستثن من ذلك سوى المتطلّعات للشرع والخارجات للحج والقبالات وغاسلات الموتى والاماء ، على أن يكون خروجهنّ لمزاولة المهنة وقضاء حوائجهن بموجب تصاريح تصدر بذلك .

وصدّرت أوامر للباعة أن يحملوا السلع والأطعمة الى الدروب والمنازل على أن تحمل السلعة المشتراة للنساء بأداة لها ساعد طويل من وراء الأبواب .

وانتسبت هذه القوانين بطابع الشدّة والصرامة والغلو في تنفيذها . سنين سبعة حتى انتقل الحاكم الى الرفيق الأعلى .

ولقد زاد المؤرخون في حملاتهم ضد الحاكم بأمر الله أنهم قالوا « أنه منع الناس من تناول بعض الأطعمة كاللوحية والترمس والجرجير وغيرها . . . وساقوها للتدليل على فساد عصره واضطراب عقله وسوء حكمه .

والنظر في هذه المراسيم بعد تقنينها وحذف المغالاة منها دليل على تأقّب فكر الحاكم وخشيته لله واتباع أوامره والبعد عن نواهيهِ .

هل القضاء على المجون ومنع الفسق والفجور جنون ؟ وإن كان كذلك
غان المجانين يكونون أكثر حكمة وتعقلا من العقلاء أنفسهم - لقد نسي الناس
أن ما يزعم بالسلطان قد لا يزعم بالقرآن .

هل أتباع الهدى والبعد عن الدنيا أمر يدعو للغرابة والدهشة
والتناقض ؟

« قتل الإنسان ما أكفره »

إن دعاة الرذيلة والذين يحبون أن تسيع الفاحشة بين المسلمين هم
وحدهم الذين يعبدون على الحاكم بأمر الله ، فإن المراسيم وما حوت من
قيم والقوانين وما اتسمت به من فضائل ، وحدها شاهده على عظمة هذا
الرجل ونقاء نفسه وسداد حكمه وأنه كان على طريق النور والهدى والصواب .

لله درك أيها الحاكم العظيم

الحق يقول :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر » . .

إلى آخر ما قال جل علاه . فهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جنون
وفساد ؟ هل تدبر الناس قول رسول الله (صلم) :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم
يستطع فبقلبه وإن ذلك لأضعف الإيمان » . . (صدق رسول الله)

تدبروا يا ألو الألباب

لا يحق لنا أن نأخذ الأمور برمتها وظواهرها ، أريد أن أسائل الناس
ومن صدقوا هذه الافتراءات أيعيب حكام الدنيا المعاصرين كلهم اليوم
أبادتهم للكلاب الضالة وانهم يقتلونهم رميا بالرصاص جهارا نهارا - أهذا
جنون وشذوذ ؟ أجيبوا أيها العقلاء - أتحریم تعاطى المخدرات والمفترات
وتتبع تجار هذه السموم وصدور الأحكام التي وصلت إلى حد الاعدام
أمر غريب وفعل شاذ يدل على عقد نفسية وكبت ومركبات نقص أو عظمة ؟

إن ذلك افتراء ممن سجلوا تاريخ هذا الحاكم الملهم .

(م ٤ - صور حضارية)

« ان الانسان لظلوم جهول »

لقد تعرض المؤرخون لطائفة من المراسيم الدينية التي صبغوها بصبغة الشدة والتناقض والافتراء منها :

- في سنة ٣٩٥هـ أصدر مرسومًا للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ولبس العمام السود .

- في سنة ٣٩٩هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها كما صدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة - وصدر مرسوم صيغ في عبارة موجزة (٨) .

- في سنة ٤٠٠هـ صدر مرسوم بالتشديد على اليهود والنصارى وألغيت الأعياد اليهودية والنصرانية وأبطلت رسومها واحتفالاتها في جميع أنحاء المملكة .

كما أبطلت رسوم الشعانين في بيت المقدس وكانت تجرى في ضجة عظيمة وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخيل كما ألغيت جميع الأحباس الموجودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمنت إلى الديوان وخربت كنائس مصر والقدس وأبيحت للنهب وهدم القصير بالمقطم وهو أعظم أديرة الملكانية وكان يأوى البطاريك « أرسانيوس » خال الأميرة ست الملك وقتل أرسانيوس نفسه بعد ذلك بأشهر قليلة .

وتعددت المراسيم وتنوعت نصوصها وبنودها شكلا ونوعا وكما .
واحقا للحق وحده ووضع في نصابه ولتنفيذ هذه الأفتراءات والرد عليها بروح العدل والحق وليكن الناس على بصيرة من أمرهم ويشين نقول :

ان الدولة الفاطمية منذ قيامها كانت تؤثر سياسة التسامح الديني في غير تفرقة ولا تمييز وتذهب في ذلك إلى أبعد الآمال وأعمقها فتصطفى من اليهود والنصارى من يحتلون أرقى المناصب وأرفع وأقوى السلطات والنفوذ .

ولقد برز ذلك واضحا منذ عصر المعز لدين الله الذي أتاح الفرص للوزراء من اليهود والنصارى الذين استأثروا بمعظم السلطات فأسرفوا.

(٨) « خرج أمر الامامة اليك بهدم قماصة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا » .

واستغلوا وانحرفوا وأطلقوا العنان للاهواء الطائفية وقدموا الذميين في المناصب وآثروهم على غيرهم من المسلمين وأصبح للأقلية الذمية تنبأ حافلا من الوزراء وأصحاب النفوذ والسلطان ويفضل هذه الرعاية والاصطفاء وامتلأ زمام الأمور اقتنوا الجم من الثروات وهيمنوا على واسع الأرزاق وامتلكوا الطائل من الجوارى والأموال وبرزت هذه الأقلية وذاع سيطها وأصبحت سيدة عزيزة الجانب وخفت جانب الأغلبية المسلمة دقت من عضدها الجهل والفقر والمرض وكانت الأغلبية المسلمة عبيدا وخداما للأقلية الذمية التي تمتعت بوافر الثراء والجاه والمال والسلطان فضلا عن أن الأقلية الذمية أصبحت تمثل خطرا على الحاكم بعد أن تجمعت السلطات والأموال والجاه في أيديها واستتسرى فيهم الفساد الذي بدى ينطلق الى جماعة المسلمين .

فلم يكن بد القضاء على هذا الخطر الجديد والتكثير بذويه والعمل على استقامة أمور الدولة وإعادة الدولة لهيبتها ومكانتها اللاتمة بها .

ومن هنا فانه كان ولا بد من وفاة ازاء هذا التيار الجارف العنيف « ولا يفل الحديد الا الحديد » - ونبذ السياسة التقليدية التي سار عليها سلفة ومطاردة العتاه المستغلين والذين أطلقوا العنان للاهواء الطائفية والنزعات الشخصية ولو لم يقف الحاكم بأمر الله هذه الوقفة الجادة القوية لفلت الزمام من يده ولأردوه شهيدا قتيلا على أرضها .

لم تكن مطاردة الحاكم للذميين فكرة سودوية كما قالوا ولم يكن اضطهادا عنصريا أو أحقادا طائفية وإنما كان رد فعل لتراكمات مبيته عبر عهود آيائه وأجداده سلاطين الفاطميين الذين آثروا سياسة التسامح وغفلوا عن الكوامن البشرية المترسبة في نفوس الأقلية المتطلعة الى السيطرة وفرض الارادة والسلطة والنفوذ .

واذا كان نمة مأخذ ينفذ اليه الناقد باسم أسلوب العنف والشدة اللتين صاحبتا وسائل وطرق تقويم الأوضاع ومعالجة الأمور حتى بلغت مبلغ الإعدام وإزهاق الأرواح ووصف ذلك كله بالجنون والحماقة فان ذلك كله رد فعل طبيعي لما بدر ممن وقع منهم الفعل المشين .

ان الحاكم بأمر الله كان يضع كل أمر في موضعه يقسو حين يجب أن تكون القسوة ويلين حين يجب وينفع اللين .

وها هو هذا من أصدر مراسيم لبس الغيار وشد الأزار ولبس العمائم السود وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبانا ظاهرة من الخشب

- كما أصدر مرسوما بهدم الكنائس فضلا عن اطلاق الهجرة للذميين ،
يصدر أمرا بأنهم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل وأمان نبيه محمد خاتم
النبيين (صلعم) (٩) ٠٠

عندما عرف كل حجمه ومكانه واستتب الأمر للحاكم وقضى على الفتنة
المنتظرة قبل مولدها وقد رأى بثاقب فكره ونلباثيته قرب مولدها وأحس
أنها ستولد عملاقة فعالة فتقضى عليها في المهد قضاء فاطعا وقبض على كل
أمر الدولة وجمع خيوط الحكم في يده وقبضته وأعاد الاستقرار الى الحياة
طبيعية كاملة .

ولا يمكن أبدا أن نعد تصرفات الحاكم تناقضا ان ما فعله الحاكم
صورة متكررة نراها في كل عصر ومع كل جيل وأن الذى يستقرأ الحوادث
ويتدبر صور التاريخ عبر العصور الغابرة والمعاصرة يجد ملامح هذه
الصورة بارزة واضحة « ألم يخرج رسول الله محاربا قريش ببدر وأحد
والخندق وغيرها من المعارك التى أوردتها المؤرخون » ؟

ألم يدخل الرسول يوم الفتح مكة المكرمة وينادى القريشيين قائلا :
« يا معشر قريش ماذا تظنون انى فاعل بكم فيقولون : أخ كريم وابن أخ
كريم فيقول عليه الصلاة والسلام اذهبوا فانتم الطلقاء » . صدق رسول الله .

ألم يعفو رسول الله عن حاربوه وعذبوه وأطلقوا عليه التسميات
كذبا وبهتاناً بأنه ساحر وأنه مجنون وأنه شاعر ؟ أفى هذا تناقض ؟
كلا . . وألف كلا . .

أنه وضع الأمور في نصابها ، الشدة حيث وجبت واللين حيث ينفع
والله المستعان على ما يصفون .

ولقد روى التاريخ روايات غاية في الغرابة والتناقض وقالوا أن أحاكم
أصدر مرسوما يسب الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان كما أمر بسب أم
المؤمنين عائشة رضوان الله عليهم أجمعين ولقد نبت ذلك على أبواب
المساجد ولا سيما جامع عمرو وكذلك الحوانيت والمنازل والمقابر . . الى
غير ذلك .

ولقد تسبب عن ذلك فتنة بين أبناء البلد الواحد فوهم من ثار
لمثل هذه التصرفات المشينة ومنهم من أيدها وانقسم الناس فريقان ، تم
يقولون عدل الحاكم عن ذلك وأصدر مرسوما يحمل التوفيق بين الطرفين
وهو مرسوم يشف عن روح العصر من التسامح والعدل .

والافتراء بين وواضح - فهل يقوم حاكم كائنا ما كان على زرع فتنة بين أبناء بلده وإثارة الفرقة والشغب بينهم أم يدعو الى الاستقرار والسكينة . ان الذين خططوا لهذه الفتنة والمؤامرة الرخيصة والذين حاكوا خيوطها هم الذين سطوروا وتشدقوا بهذه المفارقات وبالغوا فيها .

ان هذا التصرف الجنونى الذى نسب الى الحاكم لا يمكن أبدا أن يصدر عن حاكم هم أنفسهم وصفوه بالذكاء المفرط والألمعية والعقلية الفذة .

ان الذين سطوروا الشائعات ودبروا المؤامرات هم أنفسهم الذين كتبوا بواكر تاريخ الحاكم المفتري عليه وأسأءوا الى سمعته ولطخوا صحائف تاريخه بما تمليه عليهم أهواءهم .

ان خصوم الحاكم هم الذين سطوروا تاريخ أعماله وحياته فقدموه فى هذه الصورة المروعة المثيرة والذين جاءوا بعدهم أخذوا كل شئ برمته ولم يبذلوا أدنى الجهد ليتلمسوا الحقيقة فيكتبوها حتى أن الذين أدركوا بعض الحقائق من بين السطور ولم يصدقوا الافتراءات للغلو فيها ووصفوه بأنه شديد التناقض لا يصدر عن روية أو منطق متزن كما قالوا أنه كان طاغية شديد البطش والسفك ولكن كان ذلك وسيلة لا غاية ، كان خطة سياسية لا نزاعات ونهوات نفسية وأكثر الناس انصافا له قالوا : انها حالة مرضية كما قال المؤرخ الطبيب المعاصر النصرانى يحيى الانطاكى . ان هذه الأفعال العجيبة المضادة التى يقوم بها فى نفسه ويفعلها شيئا بعد شئ صنف من سوء المزاج المرضى فى دماغه أحدث لها ضربا من ضروب المانوخوليا وفساد الفكر منذ حدثته فان التعارف فى صناعة الطب أنه قد يكون فيمن يعتريه هذا المرض أنه يقوم فى نفسه أوهام ويتخيل أمورا عجيبة ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره فى جميع أفعاله ولا يتنبيه عن ذلك ثان ، ولا يرد راد وأن منهم من قد يظن أنه نبي ومنهم من يتوهم أنه الا له بنفسه تعالى كثير . الخ .

ولقد نقل كثير من المؤرخين هذه الأوصاف والأسانيد وأوردوها بكتبهم واحدا بعد آخر .

وأكثر المؤرخون أنصافا العلامة ميللر الألمانى فيقول :

« ان من يقرأ من أوردته المؤرخون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه وأنهم اعتبروه مجنونا وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ولكن توجد ثمة تساوهد واضحة على أن هذا الأمير الذى هو من أعجب أسرته كان أسددهم إثارة للأساطير من حوله وأنه حجابا كثيفا قد أسبغ عليه صورته فلا يستطيع أن تظهر منها الا باللمم .

والحقيقة أن رأى ميللر أقرب الى العقل والمنطق .

ان الانحلال الاجتماعى بين أبناء الأمة كان قائما على قدم وساق وأن مواكب الحاكم الليلية أتاحت له الفرص السانحة لمشاهدة مظاهر هذا الانحلال المروع والفساد الشامل .

وأن الذين أتاحوا هذه الفرص من الفساد هم الذمينون وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر واحد ، جمع مال وفساد مجتمع مسلم يمكن بعد ذلك افساح الطرق لأنفسهم للاستيلاء على الحكم وخاصة أن مقاليد الأمور فى كثير من نواحي الدولة كانت ملك يمينهم وتحت أيديهم وأشرافهم .

وأن المراسيم والقوانين التى لجأ اليها الحاكم لاصلاح المجتمع وعودته الى حظيرة الايمان أوجبت الشدة وعدم الرأفة فى دين الله .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا رأوا الناس الظالم ولم يأخذوا على يديهم يوشك أن يبعثهم الله بعذاب . صدق رسول الله .

وان الفساد والانحلال وتعاطى الخمر وادمانها والميسر والخلاعة والنساء البواغى كلها من ضروب الآثام ومن الظلم حقا ترك مجتمع بأثره يعيش فى هذا الفساد الشامل وأن تحرك الحاكم لتقويم المجتمع وانتشاله من بؤر الآثام السحيقة عمل جليل له لا عليه وان كره الكافرون .

وكيف يسمح بارتكاب الآثام والدولة التى يعيش فيها هؤلاء الأقوام دولة تتصف بأنها دولة اسلامية قوامها القرآن ودينها شريعة الرحمن وسنتها سنة خير الانام . . قوامها قرآن يقول « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . وميثاقها شريعة الرحمن وسنتها سنة سيد الانام الذى يقول انما حرم عليكم كل مسكر كما يقول كل مسكر خمر وكل خمر حرام وليس علينا ببعبعد فى وقتنا المعاصر ما تعانيه الأمم التى تتصف بأنها أمم متحضرة من نكبات والام فى تسببها وخيرة أبنائها من تعاطى الخمر والمفترقات المفترقات وما قد لسته أيديهم من ابيداء وأضرار وما لا يحمد عقباه ولا يشفى منها الكثير كأمراض الكبد والطحال والجنون والعتة فضلا عن خطورتها الهائلة وأثارها الضارة للاقتصاد الوطنى - ولقد افترى الممترون على الحاكم بأمر الله بتحريم بعض الأطعمة كالرجير والموخية ولقد شاعت هذه الأمور بادية ذى بدء بقصد التنكيت عليه والاستهزاء به فصارت مثلا وصارت اشاعة مصدقة .

واتهموه بمنع ذبح اناث الأبقار السليمة وقد حرم ذبحها حفظا للنوع ومحافظة على الاكثار والتناسل وفى وقتنا المعاصر نفعل كما كان يفعل من هذه الناحية ، وهو أمر محمود للحفاظ على الثروة الحيوانية والاكثار من نسل الماشية .

كما أمر الحاكم بقتل الكلاب الضالة وهل هذا يخالف ما نقوم به
الحكومات اليوم في سنتي بقاع المعمورة صيانة للأولاد والكبار من الأمراض
المستعصية والقاتلة .

ولقد طارد الحاكم المرأة وأمر بالحجر عليها لما تساهده بعين رأسه
في تجواله من أعراض تهتك وخلاعة تغرق فيها النساء وكانت المرأة وفتئذ
أصل الجريمة ومنبع الفساد ومنبت الشرور فرأى بتأقّب نظره وعمق إيمانه
اتباع نهج الرحمن وتعاليم القرآن فباعد بين الرجل والمرأة ليمحو معالم
الرذيلة ويهدم الغواية وقد اشتد تيارها وفت في عضد المجتمع المصري
كله فأسرف الناس في الغي واللهو والمجون وخلعوا رداء الإيمان والحياة
وتعلقوا بأهداب الخلاعة والرقاعة والفساد .

والحاكم محق فيما أصدره من قوانين وأحكام وأنه لعل بصيرة وعلى
طريق الحق طريق الهدى والصواب ألم يقل الحق سبحانه في كتابه الكريم :

« وفقرن في بيوتكن » ..

الم يقل الحق تبارك وتعالى : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية » .. الخ .

ألم يقل رسول الله (صلعم) : « فأظفر بذات الدين تربت يداك »
.. الخ .

الم يقل الحق جل جلاله : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما

مائة جلدة » .. الخ .

لقد جاء الحاكم بأمر الله في زمان عم فيه الاستهتار واختلط فيه
الحابل بالنابل ، وانتشر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس .

وخرجت المرأة على دينها ونفسها وكرامتها ولعبت بشرفها لعبة الفسق
والفجور وباعت موضع العفة منها بثمن قليل وخرجت عن المألوف من القيم
الغراء وردت الى أسفل سافلين ووهبت نفسها لعبة في يد الشيطان .

ولولا بياض هذه الصفحات وخشية تلطيخها بما يندى له الجبين
من قصص الفساد والافساد لدونت هنا ما حدثنا عنه الذهبي من فساد
المرأة ابان الدولة الفاطمية (١٠) .

ان الأسباب الخطيرة التي دعت الحاكم بأمر الله بأن يمنع النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات ليلا أو نهارا الا النادر منهن ولظروف خاصة ويشترط الحصول على رقع ترفع الى القصر ويصدر بها تصريح ينفذ بمعرفة الشرطة . أسباب لها وجاهاتها وجمالها وهي في جانب الحق وعلى طريقه السوى القويم .

ولقد أخذ المؤرخون على الحاكم بأمر الله ما فرض من أحكام وقيدود على الأقليات من الذميين (اليهود والنصارى) وما صدر في شأنهما من أوامر وأحكام اعتبر نوعا من الاضطهاد الدينى .

ان السياسة الفاطمية كانت تأخذ بأسلوب التسامح الدينى الذى يتحلى به الاسلام وأطلقت حرية الاعتقاد والشعائر لرعاياها من الذميين الذين يؤدون الجزية بل كانت لهم معاملة خاصة مميزة في ظل هذه الظروف ازدهروا وتبوأوا أرفع المناصب وأعلى الدرجات فانتهزت بعض هذه الطوائف هذا التسامح الدينى واعتبروه ضعفا وفرصة لتحقيق أهدافهم الشخصية ورغباتهم الفردية وحادوا عن الطريق المستقيم وتعاونوا فيما بينهم على الظلم والعدوان ودعوا الى التعصب والتكثل واتخذوا من الدين ستارا يستترون وراءه ومن مكانتهم سبيلا للسيطرة على الأغلبية المسلمة وجمع السلطة في أيديهم بل أسرفوا في الاستئثار بها واستغلالها وأطلقوا عنان الأهواء الطائفية وقدموا النصارى في المناصب وأقصوا عنها المسلمين وجمعوا الأموال الطائلة ، وتحكموا في أرزاق المسلمين وأسرفوا في مظاهر الطرف والجاه ، واقتنوا كثيرا من العبيد والجواري المسلمين ، وأكثروا من إقامة الكنائس والأديرة وهدت الأقلية النصرانية سيدة عزيزة الجانب مسيطرة مهيمنة ولم تكن الا الهيمنة على مقاليد الأمور ، وبسط السلطان على الحكم والحاكم معا ، وفي ذات الوقت ولما لا ؟ والفرصة سانحة والمناصب بأيديهم والظروف مواتية .

ولكن رجل نابه ذكى مرهف الحس فريد عصره كالحاكم بأمر الله لا تضيع الفرص عنده هباء ولا يفلت الأمر من يده وقد رأى خطورة الموقف عن كثب ، وعمق التدبير عن فطنة بالغة ففرضت الأحكام الرادعة التى لا مفر من فرضها صيانة للأمة ووجدتها وحفاظا عليها من الفرقة والشقاق والوقوف موقف الحزم والشدة على النحو الذى كان قطعنه المؤرخون والمعارضون للحكم بالغلو والتعصب والجنون والتقلب .

ولقد تحولت هذه الشدة في أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق وحسن المعاملة ، عندما عادت الأقلية الى صوابها ، وعرفت مكانها وثابت الى رشدتها واستقرت الأمة في وضعها وزال الخطر .

لقد كان الحاكم يضع الأمور في نصابها يستند الى الشدة اذا دعت اليها الظروف ويلجأ الى اللين والرفق اذا لم ينجم عنهما خطر أو هدم لكيان الأمة - وكان كذلك بعد أن تقلص نفوذ الأقلية المتعصبة •

لقد أعتبر المؤرخون ذلك ضرباً من ضروب الجنون والمناخوليا وسوء المنقلب وهم عن الحقيقة غافلون وعن الحق بعيدون •

لقد سبق الحاكم بأمر زمانه وعصره وتفوق على أجداده وأقرانه من الحكام ، لقد كان مؤمناً ملهماً محافظاً على دينه وسنة رسوله أقرب ما يكون الى السنة منه الى الشيعة ، راجع العقل متوقد الذهن تلبائياً المعيا ، بعيد النظر ، واسع الأفق ، فريد عصره ووحيد نسجه •

لقد كان سبقه لعصره مدعاة لاتهامه بالجنون والمناخوليا وهو -
منهما براء •

والله عليم حكيم ••

الحاكم في الميزان

كان الحاكم بأمر الله سخيًا جوادًا ، وافر البذل والعطاء ، زاهدا حنونًا عطوفا على الشعب ، يميل الى التخفيف عن الناس ورفع المعاناة عنهم فعند المحن والأزمات يرفع المكوس ويخفف الضرائب ، ومن أرفع مميزاته وأسمى سماته العدل ، ومن الغريب بمكان أن تتمثل العدالة في معترك من الانحلال والفساد والشذوذ والتضامن لقد كان الحاكم يتعالى الى قمة من العدل والزهّد تدعوا الى التقدير والتبجيل والاحترام ، ولقد أشاد بهذه السمة الرقيقة قلة من المؤرخين النصفين ولقد دلموا عليها في مواطن كثيرة وعديدة .

وفي ذلك يقول المؤرخ النصراني الأنطاكي :

« وأظهر من العدل ما لم يسمع به لعمري أن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم مطمئنين على أنفسهم » .

كما نقل اليينا المؤرخون عن الرواية الكنسية واقعة تدل على تمسك الحاكم بالعدل وأنه كان يهيم به هيأما فضلا عن احترامه للقضاء .

لقد صدر مرسوم تحريم التنبيذ وأمر باتلاف الكروم والذبيب والعسل ليمنع الخمر . فخاصمه من أتلف حاجياتهم المجيزة لصنع الحلاوة فقط وطالبوه بأن يعوض ما أثلفه من ماله ما قيمته ألف دينار فقبل الحاكم الخصومة وطلب أن يحلف التاجر على صدق دعواه وأنه إنما أحرز هذه البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر وحكم له بماله وأدى الحاكم له ما طلب « (١١) » .

والحقيقة أن الروايات جمّة وعديدة لا يتسع لها المجال ولكن أغفلها المؤرخون المغرضون وطمسوا حقائقها وكادوا للحاكم . وحاكوا حوله الروايات المختلفة والاشاعات المغرضة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن معيار العدالة سما في عصر الحاكم وتوطدت أركانه وعم الأمن وقلت الجرائم بل انعدمت وعلت كلمة الحق وساد القضاء وتطهرت الأيادي من الرشوة والحرام ، وقطع دابر المجرمين والعابثين واستتب الأمن ، وسادت الطمأنينة لدرجة أن الناس كانوا يتركون محلاتهم وأبوابهم

مفتوحة دون أن يفقد منها شيء ، وكان الرجل يفقد منه درهما ، فلا يجروا
أحد من الناس أن يأخذها من الأرض حتى يمر صاحبها فيأخذها ولو
بعد حين .

ومن السمات الظاهرة الطيبة التي أجمع عليها المؤرخون والتي كان
يتسم بها الحاكم بأمر الله الزهد والتقتشف في المظهر العام وحياته الخاصة
فضلا عن تواضعه المؤثر ونبذه للألقاب الفخمة التي تحيط بالخلافة الإسلامية
فمنذ توليه عرش مصر منع الناس كافة من مخاطبته بسيدنا ومولانا
وإلا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه
إذ لا يجوز الانحناء إلى الأرض لمخلوق إنما هي بدعه ، وكل بدعه ضلالة
وكل ضلالة في النار ، وما هي إلا من صنع الروم ويكفي شرفا وقدرًا أن
يقال السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وما أعظم قدر هذا الرجل القابض على دينه ، وما أجل سلوكه
وأشرف خطاه ، على درب الرسول الكريم يسير ، وعلى طريق الهدى يقتدى
فبعد ذلك يقال أنه مجنون أو مخبول أنه الحقد الدفين على من اتبع الهدى
ورضوان الله ، أنه الحسد المبين على عباد الرحمن الذين يمشون على
الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

ومن حسن الأدب أن أصدر أوامره بتقصير عبارات ذكر اسمه على
المنابر كما منع الحاكم الاحتفالات التي اندست في الإسلام والتي ابتدعها
أصحاب البدع وكثرت في عهد من سبقوه إلى أن تولى الحكم والتي يعجز
البيان بل يخجل عن ذكرها ووصف سوء طالعها ولو ترك العنان للقلم لنفذت
الأوراق قبل أن تنفذ الكلمات والمداد .

وعزفت نفسه عن ركوب العمارات وخيول الخلافة المسمومة ، وترك
مواكب الخلافة . واتسم بالبساطة والزهد وبعد عن الاستقبالات الرسمية
واندفع إلى الديمقراطية وتحلى بخصال الخلفاء الراشدين والصالحين
الأوائل ، وخلع ملابس الخلافة المظهمة وارتنى ثياب البساطة ، أو دراعة
من صوف ، وانتعل حذاء ساذجا ، وكان يركب فرسا بلا زينة ، وأغلب
طوافه بالقاهرة على حمار دون موكب ولا ضجة ولا عسس ولا حرس ولا حشم
سوى بضعة من الركابية ، واحتقر الدنيا وزينتها ، وارتفع عن الحياة
وبهجتها ، وانتصر على نفسه وأهوائه وشهوته وسهر على راحة شعبه وأهل
بلده ولم ينقطع عن الطواف بالليل والنهار حتى في أشد حالات مرضه
وسقمه .

واختلط بالمحكومين واتصل بهم وعاسرهم وألم بظفروهم وأحوالهم ولم يغلق باب قصره دونهم ولم يجمل بينه وبين ذوى الحاجات المظلومين والمتظلمين حجاباً ولا سياجاً ، أبواب قصره لهم مفتوحة وأذانه لشكواهم واعية وحواسه ومشاعره لهم حاضرة •

« وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » •

(صدق الله العظيم)

رأى

لا ريب أن الحاكم المفترى عليه كان فريد عصره ونسيج وحده اتبع الهدى وصار على درب الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه كان متقذ الذهن صافى القلب قوى الشكيمة زاهدا عارفا بالله مقيماً لتعاليمه مؤيداً لفرائضه ، عزفت نفسه عن الدنيا فاستوت عنده مباحج الملك وتسطف العيش • وكان يرى الحق حقاً فاتبعه والباطل باطلاً ورزق اجتنابه ، وأضفى عليه إيمانه رغم صغر سنه وحدائته المعية وشفافية لم تعطى إلا للصالحين والصادقية والركع السجود ، فرأى البلوى قبل وقوعها فدرأها وألم بخروج الناس عن حدود الله فردهم الى الصواب بالحسنى وبالسultan ، ومن لم يزعن بالقرآن يزعن بالسultan •

كان ملماً بأحكام القرآن الكريم فدعى اليه وعمل به واتبع النور الذى جاء معه - فتتح قلبه للإيمان فأثار الله بصيرته فسبق عصره ومن هم بعد عصره وحطم الجاهلية ، ولم يجعل لها سبيلاً الى الدنيا وأطفأ شعلتها •

اتهموه بالجنون والفسوة وهو منهما براء براءة الذئب من دم بن يعقوب والفضل ما شهد به أعداؤه فان الحق أبلج والباطل لجلج •

وان الذين طمسوا الحقائق وشوهوا وجه تاريخ الحاكم بأمر الله ليسألن عما يفعلون وسيعلمون الى أى منقلب ينقلبون •

الحاكم والعالم الخارجي

لقد تساهدنا عن كُتب الدولة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله ورأينا مشاهد كبيرة من الأحداث التي وقعت في عهده ودخل دولته وسرطانها معلقين عليها برأينا مجردا من كل العواطف والملايسات الكاذبة التي أحاطت بتاريخ هذا الحاكم وفي زمن بعينه وألقينا الضوء ساطعا على بعض الأحداث مقتضبا - باعتباره خير الكلام وأحسنه .

وكتب التاريخ مليئة بالأحداث الخارجية مفعمة بها ولا تنسح هذه البحثة لذكرها كلها على سبيل التفصيل والحصر .

لذلك فاذننى رأيت أن أتناول أكثرها شهرة بين المؤرخين والباحثين ذاكرة الأحداث كما ذكروها وأوردوها .

ان الانتصارات الساحقة لجيش الحاكم بأمر الله في فلسطين وطرابلس وحلب وثورة أبى ركوه التي هى موضع دراستنا على وجه التفصيل والتي كادت تزلزل عرش الحاكم وتهز أركان الدولة الفاطمية غير أنه تغلب عليها وقهر مؤججها وقتله شر قتلة .

فلسطين :

اندلعت نيران الثورة في مسيرة سنة ٣٨٨هـ ينزعها بحار مغامر يدعى « العلاقة » سيطر على زمام الحكم - فيها وسك النقود باسمه ونقش عليها « عزا بعد فاقة للأمير علاق » وعاصرت هذه الثورة ثورة أخرى في الرملة بقيادة « المفرج بن دعتل الجراح » .

أرسل برجوان جيشا الى الرملة وأخضع ثوارها واستولى عليها وقبض على قائدها ثم عرج الى صور وكان حاكمها قد استنجد بامبراطور الروم فأرسل اليه أسطولا بحريا ولكن الجيش المصرى الباسل حاصرها برا وبحرا وحمل وطيس المعركة واشتد أوارها وتأجج لهيبها فأسر سفن ببزنطة وقتل من فيها وكانت الغلبة الساحقة لجيش المصريين . وسقطت صور في أيديهم وسبى الجيش المصرى من فيها كما أسر العلاقة وأرسل الى القاهرة فأعدم وصلب وهتل بجثته سنة ٣٨٨هـ (١٢) .

ثم سار جيش ابن الصمصامة الى دمشق وأخضع الفتنة وثبتت.
رواسى الدولة الفاطمية وواصل سيره الى « افامية » والتقى الجمعان الروم
والمصريين ودارت رحى المعركة حامية ودارت على المسلمين بادىء ذى بدء
الدائرة - ولكن سرية من الفرسان بقيادة بشارة الاختيصى ثبتت في وجه
الروم ونفذ الى المعسكر البيزنطى جند من المسلمين ووقع الاضطراب
في صفوف الروم وهاجمهم المسلمون بشدة ومزقوا جندهم وشقتوا سملهم ،
ونقلوا الآلاف منهم وأسر أبناء الدوقى وجماعة من كبار القادة وأرسلوا الى
مصر حتى افتحتهم حكومتهم تم توفى جيش ابن الصمصامة في ربيع الأول
سنة ٣٩٠هـ وعقد الصلح بين الطرفين .

ولما كانت طرابلس تجاور مصر من الغرب ويخنى عليها من أطماع
البرابرة الأتداء - فقد رأى بروجوان أن يستردها وأن يحصنها لتكون
درعا واقيا لمصر ولكن الفشل حاله وفي سنة ٣٩٠هـ أرسل الى برقة جيشا
بقيادة يحيى بن على الأندلسى فخاض معارك حربية مع البربر ، ولقد أصابه
الفشل أيضا فتركها .

حرض أبو القاسم الحسن زعيم عرب فلسطين حسان بن مفرج بن الجراح
عام ٤٠٠هـ وأوعز اليه بالخروج على الدولة الفاطمية ، فثار حسان وزحف
على الرملة ، واستولى عليها وقتل حاكمها ، وعانت جندة في الأرض الفساد
وسمى بأمرير المؤمنين الراشدين لدين الله ، ونزع ذهب وفضة الكعبة ،
وضرب النقود باسمه .

واندلعت ثورة أخرى بفلسطين بزعامه ابن المغربى وأرسل الحاكم جيشا
اليها بقيادة « بارختكين أوبازكين » العزيزى وأصابه الفشل أيضا وقتل.
شر قتلة واستفحل أمر بن الجراح وبسط نفوذه وسيطر على جنوب الشام.
كله وحاصر حصون السواحل .

هنا أدرك الحاكم أنه لا بد من تغيير أسلوبه وسياسته التى لم تثمر
الا شوكا ، كما أدرك ضعف جندة وخور قوتهم ، وسقم نفوسهم فرأى من.
الحكم والصواب أن ينهج منهاجا آخر يغير من حاله وحال موقفه فأخذهم
بالرفق واللين وأرسل اليهم الهبات والهدايا والعطايا الجمدة فعادت السكينة
الى ربوع الشام .

أبعد ذلك بقول المؤرخون أنه مجنون ؟ انها عين الحكمة والعظمة .

الدولة الحمدانية :

لم تنجح حملات الفاطميين أيام العزيز في فتح حلب والتي كان أميرها أبو الفضائل بن حمدان ، الملقب بـ « سعد الدولة » والذي استمر يحكمها بمعاونة وزيره القوى « أبو نصر لؤلؤ » حتى انتقل الى الرفيق الأعلى وعقب وفاته انزعز الى نصر لؤلؤ الولايه من ولديه أبى الحسن وأبى المعالى وحكم باسمهما حيناً من الزمن ثم أخرجهما من حلب فسارا الى مصر والتجأ الى الحاكم بعد أن استغل لؤلؤ بالحكم وانفرد به ، ولكنه مكر مكرًا كبيرًا انتقاء لخصومه الفاطميين فأعلن طاعته للحاكم .

ودعا له ثم نقض العهد وعاد الى خصومته له وقاومه . واشتد وطيبس الحرب وتعددت المعارك واختلفوا فيما بينهم ، وفشلوا وكانت النتيجة الحتمية أن وقعت حلب وسقط في يد الحاكم وولى عليها أمير من بنى حمدان يدعى عزيز الدولة ولقب بأمير الأمراء ودخلها عام ٤٠٧ هـ واستمر على حكمها في طاعة الحاكم حتى لقي ربه .

ويعد سقوط حلب في يد الخلافة الفاطمية ، وزوال الدولة الحمدانية من أعظم الانتصارات الخارجية في عصر الحاكم بإمر الله .

ثورة أبى ركة (١٣) :

أن ثورة أبى ركة وغزوه لمصر كانتا من أعظم وأخطر الأحداث الخارجية فقد كان داعية قويا وكاد أن يزعزع أركان الدولة الفاطمية ويقضى عليها .

من هو أبو ركة :

هو أموى من ولد هشام بن عبد الملك يحمل ركة على كتفه ولذا سمي بأبى ركة ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ويفول الرواة أنه سليل بنى أمية الأندلسيين وأنه ولد هشام بن عبد الملك بن مروان اسمه الوليد وكان صوفيا (١٤) .

(١٣) ركة : زمزية : ماء يحملها على ظهره للوضوء على الطريقة الصوفية .

(١٤) البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٢٠

لماذا حضر الى مصر :

يقول عماد الدين أبى الغذاء اسماعيل القرشى الدمشقى فى سبب مجيئه الى مصر « أنه سمع الحديث بالديار المصرية ثم أقام بمكة ثم وصل الى اليمن ثم دخل الشام وهو فى غصون ذلك يبايع من انقاد له يرى عنده همة ونهضة للقيام فى نصرة ولد هشام ثم أنه أقام بعد ذلك ببعض بلاد مصر فى محلة من محال العرب ليعلم الصبيان ويظهر التقشف والعبادة والروع ويخبر بشئ من الغيبات تم خضعوا له وعظموه - فدعا الى نفسه وذكر لهم أنه يدعى اليه الأمويين فاستجابوا له وخطبوه بأمر المؤمنين ولقب بالثائر بأمر الله المنتصر من أعداء الله .. وخطب بالناس يوم الجمعة ولعن الحاكم فى خطبته (١٥) .

ويبدى ابن خلدون رغبة فى نسبه أبى ركة وفى دعواه أنه سليل بنى أمية ولكن ليس هذا موضوع بحثنا على كل حال ، ولقد قطع مرحلة التجوال والاستطلاع والدرس وعندما سنحت له الفرصة للدعوة والعمل كسيف عن شخصه وأظهر نسبه ودعا الى عمه هشام المؤيد الأموى .

« وزعم أنه يملك مصر ويقوم على أسس من العدل والتقوى » ..

سار أبو ركة على هذا الدرب ردحا من الزمان حتى زادت قوته وقوى نفوذه وزاع سيطه وارتفع بين الناس قدره ، والتفوا حوله وانضم اليه المنبوذون والمضطهدون من الحاكم بأمر الله ، وعقدوا العزم على تفويض عرشه والقضاء عليه ، وعاهدوا الاتباع قائدهم على الجهاد فى سبيل الله على أن يكون له ثلث الغنائم ولهم الثلثان .

عندئذ شعر حاكم برقة بالخطر الداهم وهم بقمعها والحاكم فى ثبات عميق فلم يسرع بعظم الخطر وجلال الموقف بل استهان بالامر فتماذى أبو ركة فى صلفه وغطرسته وهاجم برقة هجوما عذيفا وانتصر أبو ركة وأصاب الخسران جيش الحاكم بأمر الله بسبب اهماله وغفلته ودخل أبو ركة برقة منتصرا ظافرا وبسط سلطانه عليها سنة ٣٩٥ هـ .

شد النصر أزر أبو ركة وأحس فى نفسه بالتفوق والقوة وتطاول على الحاكم وأهله فى خطبته وشهر به وبنسبة الزائف الوضيع . وهرعت اليه الجماعات والأفراد يؤيدونه ويؤازرونه .

تملك الحاكم الذعر بعد أن تطورت الأحداث وتفاقت المعضلات وأرسل المدو الى برقة لمحاكمة الثائر واسترداد ملكه السليب ولكن أبو ركة

كان قد أسرع للقائه فتقابل الجمعان في واد مقفر منه بركة ٠٠ وكان الثوار قد طمسوا أباره فأجهد العُشَّ المَصْرِيَّين فضلاً عن خُرُوج بعض الخونة على الحاكم وانضموا الى جيش أبي رُكوة فازدادت قوته ودارت الدائرة على جند مصر وأسر قائدهم « ينال » وقتل ، وأصابهم الهول والفرع وأصابتهم الهزيمة وعاد الشائر الى بركة مؤزرا بالنصر محملا بالغنائم ، متطلعا الى امتلاك مصر والاستيلاء عليها وخاصة أن الظروف سانحة والامكانيات كثيرة فضلا عن وجود خونة يساعدونه ويمهدون له الطريق فأرسل الى الصعيد سراياه فلم تلق مقاومة فأعطاه ذلك الأمل وخاصة أنه رأى أن الباب أمامه مفتوحا .

سار أبو رُكوة بجيشه العرمرم وجموعه الجراراة نحو صعيد مصر وعاهد خلفاؤه على أن يقتسموا تراث الدولة الفاطمية فتكون مصر من تصنيفه والشام من نصيب العرب ، ولقد كان هذا الزحف خطيرا بل أكبر خطورة من خطر زحف القرامطة عليها ، ولكن هذه الحشود الزاحفة كانت مهلهلة غير منظمة فضلا عن أن الجنود كانوا خليطا عجيبا من الأنصار والبدو والغامرين والمرتزة لا يجمع بينهم وحدة ولا ألفة ولا صلة الا رابطة المصلحة الشخصية .

شعر الحاكم لفداحة الموقف وجلل الخطر الذي بهدد الدولة وأحس بالعرش يهتز تحت قدمه ، فأعد العدة وجهز جيشا واستقدم فيه من الشام جندا ووضع على رأسه الفضل بن عبد الله سنة ٣٩٦هـ والتقى الفريقان في كوم شريك قرب الاسكندرية ودارت المعارك حامية الوطيس قتل فيها الكثير من الفريقين ورجحت كفة الهاجمين وارتد الفضل صوب القاهرة بجنده وخيم الدمار والموت على الناس واشتد به الرعب والخوف ورحل الجيش الى الهرم وقابل الجيش الثاني بقيادة علي بن فلاح الذي ارتد تجاه صحراء الفيوم وتبعه بقواته بعد أن نظمها وأعاد اليها الثقة وعززها بالحد واستأنف القتال وحمل وطيسه وكان الفصل في اليوم الثالث من ذي الحجة سنة ٣٩٦هـ وهزم أبو رُكوة وتششت شمل رجاله وتفرق جمعهم وقتل من جنده الكثير وارتد الشائر جنوبا والفضل يطارده حتى حدود النوبة ثم قبض عليه وأرسل الى القاهرة فسر الحاكم بذلك وخلع على الفضل وغمره بعطفه وأعلن النصر واطمأنت النفوس واستقرت الأحوال .

التمس أبو رُكوة الصلح من الحاكم وأبدى جزعا وخنوعا ولكن الحاكم لم تأخذه به رأفة ولم يثنه معسول الكلام عن عزمه وقرر اعدامه حتى كان جثة هامدة .

وهكذا استطاع الحاكم بعزمه وصبره وقوته أن يقضى على أخطر الثورات وأعظمها بقلب ثابت ورباطة جأش كما استطاع أن يحافظ على كيان الدولة وسلامتها ولقد سجل له التاريخ ذلك .

(م ٥ - صور حضارية)

الألوهية والحاكم بأمر الله

آلت مقاليد الأمور إلى الفاطميين وأصبحت لهم خلافة ذات طابع وصيغية مستقلة ، ونادوا بأنهم أصحاب حق في الخلافة بل هي حقهم المقدس. المسلوب منهم والمغتصب اغتصابا . ومنذ نهاية القرن الثالث الهجرى تأثر بمذهب الشيعة الأول بمؤثرات عديدة وعظيمة كالفلسفة الاغريقية وعقائد التناسخ والديانات المختلفة ومن ثم أصبح مذهب الشيعة خليط من الدين والفلسفة وليس ذلك فحسب بل نشأ من ذلك مذاهب وطرائق قعدا كالدرزية والحشاشين وغيرهما من العقائد التي ظهرت آثارها عبر عهود حكامهم عامة وحكم الحاكم خاصة .

كان الحاكم بأمر الله عصب الحياة وروحها إبان حكمه سواء في الدولة أو المجتمع ورغم الحياة المضطربة والقلق المضنية كان يحيا لنفسه حياة عقلية وروحية .

وفي أوائل سنة ٤٠٨ هـ ظهر في آفاق القاهرة رجل يدعى حمزة بن على. بن أحمد الزوزنى ، دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله وشرح دعواه في عدة كتب ورسائل وجعل دعواه سرا ردحا من الزمن حتى سنحت الفرصة وجاءه بدعواه على الملأ داعيا إلى عبادة الحاكم وتناسخ الأديان والمشرائع وبالحلول. كما زعم أن الحاكم ليس بشرا وإنما رمز حل فيه إلهه والنفت حوله شرزمة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية وتلقب بهادى المستجيبين ولقب الحاكم بـ « قائم الزمان » .

كثر أتباع هذا المدعى وزاع سيطه ، وملا الأسماع أمره ويقول المؤرخون أن الحاكم أولاه رعايته بصورة واضحة وأرسل إليه وإلى مريديه السلاح ليدافعوا عن أنفسهم هذا من جانب وعلى الجانب الآخر تماذى حمزة في غيه فاتخذ له بطانة قوية ودعاه ورسلا .

ومما لا شك فيه أن يظهر في الآفاق من الرسل والدعاة والتلاميذ طامعين ومتسلقين منهم متطلعين إلى المجد والمقام الرفيع وفي مثل هذه المجالات ينقلب الرسل بعضهم على بعض ويغلب عليهم روح التنافس وكان الأمر كذلك. فظهر الدرزي الذى كان خليفة لحمزة وراعية له وانقلب عليه ونافسه وخاصمه كما قرر المؤرخون .

ويقول الأنطاكي في كتابه وهو مؤرخ معاصر أن أول من ظهر منهم في سنة ٤٠٨هـ وأول من أذاع دعوة الوهية الحاكم ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزي و في نفس العام « (١٦) » .

ويقول الوزير جمال الدين في أخبار الدولة المنقطعة « أن الأحزم كان أول من ظهر بمصر من هؤلاء الدعاة وأول من بث دعوة الألوهية وأن ظهوره بالدعوة كان في سنة ٤٠٨هـ وقد قرر ذلك في خاتمة رسالته الأولى والمسماة « بالنقض الخفي » .

وظهر حسن بن حيدر الفرغانى المسمى بالأحزم بمدينة القاهرة عقب ظهور حمزة بقليل ودعا مثل ما دعا اليه حمزة من التناسخ والحلول وألوهية الحاكم وذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتقة فاستدعاه الحاكم وخلق عليه وأركبه فرسا وسيره في موكبه وأولاه وعطف عليه .

ولكننا نجد أن محمد بن اسماعيل الدرزي أقوى رسل حمزة وأتدعهم عزما وجرأة وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة الى التناسخ والحلول - ويزعم أن روح آدم قد انتقلت الى على بن أبى طالب ثم انتقلت روح على الى الحاكم صفوة سلالته وشرح الدرزي دعوته وأصول مذهبه في رسالة قدمها الى الحاكم فقربه وأعذق عليه العطايا وارتفعت لديه منزلته واشتد نفوذه حتى غلا ٠٠ وسمى الدرزي نفسه « سند الهادى » وحياه المستجيبين والهادى هو حمزة كما رأينا وفي ذلك ما يدل على أن حمزة هو السابق والدرزي هو اللاحق وأن الرجلين في البداية على الأقل خلقتين يعملان لبث الدعوة معا بمنتهى التعاون والوافق (١٧) .

وقد كان هؤلاء وغيرهم اذا صادفوا الحاكم في ركبة قالوا « السلام عليك يا أحد يا محبى يا مميت وغيرها من الألفاظ التى جعلت الحاكم يعتقد تمام الاعتقادات أنه ارتفع الى مستوى الألوهية كما ارتفع عن سائر البشر .

وقد أفاض آية زولاقي عن ادعاء الحاكم للالوهية « ذلك الخليفة الذى كانت تملك نفسه الرغبة التى استولت كاليجولا » من قبل أن يجعل نفسه في مصاف الآلهة فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يتدسسن في دور بعض أناس مخصوصين وكان من واجبه أن يكتشف ما يحدث

(١٦) الأنطاكي : ص ٢٢٠ ، ص ٢٢٣ ، الفاطميون في مصر : ص ٢٠٥ ،

ص ٢٠٦

(١٧) الحاكم بأمر الله : ص ١١٦ .

فيها ثم يقدمون تقاريرهم عن ذلك اليه في اليوم التالي . . فاذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للمثول بين يديه ويخبرهم بأمرهم وما حدث في دورهم ولم ينسى أن يتخذ جواسيس آخرين مهمتهم أن يقدموا اليه بتقارير بكل ما يحدث في الطرقات وكان نتيجة هذا وذاك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم الغيب .

وهكذا امتلأت كتب التاريخ بعدد من القصص والحوادث التي تشير الى ادعاء الحاكم بالالوهية .

والحق والله أعلم أن الحاكم بأمر الله براء مما نسب اليه وأن نظرة دقيقة فاحصة عبر وريقات التاريخ وإعادة قراءة ما سطره المؤرخون المعاصرون للحاكم بأمر الله والذين جاءوا بعدهم ليشعر صدقا وحقا بالافتراء على هذا الخليفة المؤمن بالله الزاهد العادل لا كما أقول ولكن كما سطوروا بإيجيهم عنه .

لو وضعنا ما قالوه موضع البحث والتنقيب لرأينا الافتراء ظاهرا بارزا واضحا وضوح الشمس وضحاها .

وبإدء ذى بدء لقد اختلف المؤرخون فيمن كان أول داع بالوهمية الحاكم أهو حمزة ، أم الدرزي ، أم أحزم أم سواهم من عشرات الدعاة الذين ورد ذكرهم في مختلف كتب المؤرخين وكلهم معاصرون للحاكم وفي سنة واحدة هي سنة ٤٠٨ هـ وكل أطلق على نفسه بهادى المستجيبين أو سند الهادى وحياء المستجيبين أو غيرها من الأسماء المتشابهة .

ثم قالوا أنه اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يقدمن اليه تقاريرهم ليواجه بها أصحابها عند المثول بين يديه ايها ما لهم. بأنه يعلم الغيب والأسئلة التي تطرح نفسها بهذا الصدد لا تعد ولا تحصى كم امرأة اتخذها الحاكم جاسوسا ؟ ، وهل كن يعرفن القراءة والكتابة حتى يقدمن تقاريرهم وأين يقدمنها له ؟ في قصره ؟ أم في أى مكان وهل كن يتجمعن عنده وكيف كان يختار هؤلاء النساء ؟ وهذا يتعارض تماما مع ما كتبوه عنه من أنه منع خروج النساء .

سؤال آخر يطرح نفسه وكأنه يصرخ عاليا ؟

يقول المؤرخون في موضوع الالوهية أن الشعب أيقن أن للخليفة قدرة خارقة للعادة وأن الله اصطفاه من شجرة النبوة السماقة وليحكم بين الناس

جروح من عنده فعليهم السمع والطاعة لأن حكمه هو الحق والعقل والمهم من عند الله سبحانه وتعالى فللامام عند الفاطميين صلة روحية بالله من جنس الأنبياء والرسل ولقد تعالت الرعية في تقديس الخليفة فلقموا قدميه ويديه مهما عظم شأنهم ومركزهم على مرأى من الناس وقبلوا الأرض بين يديه وقاموا وقوفا كلما ذكر اسمه في الخطبة أو مرت أمامهم في الطرقات وركعوا وسجدوا عند رؤيته واعتبروا تقبيل رداءه سرفا عظيما .

والقارىء للفقرة السابقة يرى التناقض فيها بارزا جليا واضحا كيف يقولون أن الله اصطفاه من شجرة النبوة كما جاء بمطلع الفقرة ثم يقولون ، وركعوا وسجدوا عند رؤيته في آخرها ؟ وكيف يكون ؟

ومن عجب بأن هؤلاء المؤرخين أنفسهم الذين قالوا كما جاء بهذه البحاث من قبل أن الحاكم يتمتع بخصلة أجمع عليها المؤرخون وعلى الاتسادة بها تلك هي زهده وتفتنسه في حياته العامة ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للألقاب الفخمة التي تحيط بالخلافة الاسلامية ، وكان أول حكمه منع الناس كافة من مخاطبة أحدب سيدنا ومولانا ، وأصدر أوامره ألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام إذ لا يجوز الانحناء الى الأرض المخلوق وانما هي بدعة من صنع الروم لا يحل أن يجيئها أمير المؤمنين ويكفى في السلام الخلفي أن يقال (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) .

أى تناقض هذا الذى وقع فيه الممترون ليظهر الله الحق . كيف يكون ذلك ؟ كيف يمنع أمير المؤمنين أن لا يقبل يده ولا ركابه كما يمنع انحناء الرعية الى الأرض أمامه ويصدر مرسوما يوضح فيه أسلوب السلام الاسلامى ثم بعد ذلك يدعى الالهية أنه افتراء أنه كذب انها فرية على الحاكم .

« انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ان سيرة الحاكم العطرة وتاريخه الوطنى من عدل وتصرف وزهد وتواضع لدليل بين على ما افتراه عليه المغرضون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويفترون على الصالحين والمؤمنين الكذب والزور والبهتان .

لكى نتوخى الحقيقة والعثور عليها والجري وراء الأسانيد التاريخية الصادقة ، أمر غير يسير بل هو أمر بعيد المنال الا اذا ألفت الصدفة الحقيقية في طريق المؤرخ أو الباحث ، ولكن بتفنييد لآراء المؤرخين وتمحيص وتدقيق

ونظرة عمق وإرادة صادقة للوصول الى الحقيقة ألهمنا الحق جل جلاله الى
جلاء هذا الموقف ورفع التهمة التي انقضت ظهر تاريخ الحاكم المفترى عليه
والحق سبحانه يقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في
البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس الا في كتاب مبين » ٠٠

(صدق الله العظيم)

العلم والعمران والحاكم

أنشأ الحاكم دارا للعلم سنة ٣٩٥هـ سماها « دار الحكمة » كانت رمزا للدعوة السيعية على غرار مجالس الدعوة التي كانت تسمى « مجالس الحكمة » .

يقول فيها المسيحي « فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ودخل إليها الناس - ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه وكذلك من رأى - قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء . بعد أن فرشت هذه الدار ، وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها النور ، وأقيم قوام وخدم وفرائسون وغيرهم ، وسموا بخدمتها - وجعل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بإمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك .

وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر إليها . وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر (١٨) .

وفي سنة ٤٠٣هـ . أحضر الحاكم جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الأطباء - وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع وصرفهم . ووقف أماكن فسطاط مصر عليها فضلا عن الجامع الأزهر والمسجد الجامع « جامع عمرو بن العاص » الذي كانت حلقاته العلمية والأدبية عنصرا بارزا في تكوين الحركة الفكرية وقتئذ .

ولقد أولى الحاكم الحركة الفكرية والعلمية والأدبية جل رعايته فأجزل العطايا وعقد مجالس المناظرة العلمية والأدبية ، وقرب إليه أقطاب المفكرين والأدباء مثل المسيحي الكاتب المؤرخ الكبير ومحمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم وحبيبه وجليسه .

(١٨) المقرئ عن المسيحي ج ٢ ص ٣٣٤ - النجوم للزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢.

يعتبر عصر الحاكم بأمر الله عصر ازدهار للعلوم والشعر والنثر الذى تميز بروعته وبراعته وافتنانه ولقد كان من أتيهر شعراء هذا العصر أبو الحسن على بن محمد صاحب كتاب الديارات وابن يونس العلامة الرياضى والفلكى والأديب والشاعر وهو الذى كتب تاريخا لمصر ، ولقد تعددت فى عهد الحاكم قيادات الحركات الفكرية والعلمية وكان على رأسهم الحاكم بأمر الله نفسه وغيره كثيرون .

والتاريخ فى عهده تحدث عن كثير من كبار المحدثين واللغويين وأئمة الأديب وقادة العلوم والفكر .

ولقد قيل أن الحاكم كما أنه قد خلف ثروة علمية قد خلف ثروة مالية طائلة من الذهب والفضة كما أنه قد ورت عن عمته التى ماتت أيام حكمه ما قيمته ألف ألف وسبعمئة ألف دينار فضلا عما وجد فى جزائن كبسوتها .

وقد استشهد المؤرخون على كثرة ماله بما خلفته ابنته ست مبر بعود موتها من أشياء كثيرة يطول الشرح فى ذكرها ويعجز القلم عن وصفه .

وحقيقة الأمر أن ما ورثه أو خلفه الحاكم ليس من الأمر فى شىء لأنه عرض زائل وليس موضوع بحثنا هذا أن قل أو كثر .

النهاية ٠٠ والحاكم بأمر الله

كما تعددت الأقاويل حول حياة الحاكم وألوهيته ، وكما أحاط تاريخه أساطير الغرابة كذلك أحاطت نهايته عجائب شتى ومآسى وغرائب عديدة .

ان نهاية الحاكم أجاطت بها ظروف غامضة ووقائع واضطرابات وروايات أكثر غموضا وغرابة ، ويعتقد المؤرخون أنه ذهب ضحية مؤامرة سياسية وتدبير جريمة أدت الى مصرعه لتحقيق غاية ما ، وهذا ما قررته بعض الروايات المعاصرة .

ويطفو على السطح أسئلة عديدة :

- من دبر هذه المؤامرة ؟
- من قام بتنفيذها وكيف ؟
- وأين ذهبت جثة الحاكم ؟

ولا ريب قد أغتيل الحاكم بأمر الله بتدبير من داخل القصر فأدى ذلك الى طمس الحقائق واختفاء شخص المديرين والمنفذين وتقول بعض الروايات أن مصرع الحاكم كان من تدبير أخته ست الملك (١٩) ويرجع ذلك الى أسباب عميقة وبعيدة منذ تولى الحاكم الملك بعد وفاة العزيز بالله ، وكان لها دور فعال وكبير في إدارة شئون الدولة وتوجيه سياستها في بداية عهد الحاكم حيث أنها كانت تمده بصائب الرأي وحسن المشورة ودقة التدبير في كثير من أمور الدولة ويقول المؤرخون ، أنها كانت تسهر على سلامته كما تسهر على سلامة ملكه ، ولما استأثر الحاكم بالسلطة ، وشغل حركتها وزاد الطين بلة كما يقولون أنه طعنها في عفتها وشرفها وأغضبها وكان يردها بغليظ القول فحققت عليه وعقبت العزم على الخلاص منه ، ونظرت ست الملك جولها لتنفيذ الجريمة فلم تجد غير سيف الدولة « الحسين بن داس » واتفقا معا وسرا وجعلا لتدبيرهما سببا ظاهرا ما وصلت اليه حال البلاد من الفوضى وسوء الحكم وما يهدد البلاد والاسلام كله من خطر التمزق والفرقة والضياع بسبب سوء تصرفات الحاكم وغيه وجبروته وأنه لا سبيل الى الإصلاح الا بقتله وتولييه الحكيم بعبد له .

لبنى ابن دواس دعوة ست الملك التي أخذت عليه موثقا بالوفاء والكتمان ووعدته بأنه سيكون مدير أمر الدولة وصاحب الكلمة ، فأعد العدة لتنفيذ جريمته الشنعاء التي باع فيها ضميره ودينه ودنياه بمن أقل من القليل ، وعهد ابن دواس الى عبيدين مخلصين له وأنعمت عليهما ست الملك مالا وحيا كما زودتهما بسكينين ماضييين - وانتقوا على أن يكون التنفيذ عندما يخرج الحاكم الى المقطم ليلا في الليلة التالية ، وكما نعلم كان الحاكم شغوبا بالطواف ليلا لاستطلاع أمر رعاياه والوقوف على حياة الأمة . وفي ليلة ٢٧ شوال ٤١١هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ خرج الحاكم كعادته لتفقد الأحوال وسار الى تل المقطم تحت رقابة أخته ست الملك فأخذت أهبتها وأعدت عدتها وقد سبقها الجناة الى فريستهم وما أن وصل الحاكم الى مكان قدره شرقى حوان حتى خرج عليه العبدان من مكمنهما وانفضا عليه وأسخنا طعنا وطرحاه أرضا وأردياه قتيلا وقد أزهقت روحه الى بارئها ودعتهم الوحشية الى قطع ذراعه واستخراج أمعائه وقتل الصبي المرافق له وقطعا قوائم الحمار وحملا أشلاء الى سيدهما الذى رافقهما الى ست الملك وسلموها اياها فدفنتهما فى نفس المجلس وأنعمت عليهم بمال وتحف ودعت كبير وزرائها أبا الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع واستخلفته بالكتمان والطاعة وأمرته باستدعاء ولى العهد وأخذت كل الأهبة لمدارات سؤتها واخفاء جريماتها .

وبعد أن تخلصت ست الملك من الحاكم كان ولا بد أن تتخلص أيضا من شركائها فى جريمتها حتى يظل الأمر سرا وعلى الكتمان فبعد أن أخذت البيعة للخليفة الطفل أبى الحسن على ابن الحاكم بأمر الله فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ استدعت ابن دواس الذى انقض عليه رجالها وقتلوه وعبيده كما قصت على الوزير خطير الملك ولم تترك أحدا ممن وقف على السر الا قتلتة .

وهكذا ذهب السر والجناه معا والى الأبد .

ولقد استدللت بعض الروايات بل أجمعت على براءة ست الملك فلقد قال القصاصى - وهو مؤرخ معاصر وقد كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما مضيها اليها :

« ولما لم يعد الحاكم كعادته فى صباح اليوم التالى خرج القضاء والأشراف والقواد الى الجبل فبحثوا عنه حتى آخر النهار ولم يعثروا عليه ، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى وفى اليوم الرابع أخرج قطغر ساحل المظلة « ونسيم » ساحل الستر ولبن سكين صاحب الرمح

وعدد من زعماء الجند والقضاة ورجال الدولة وتوغلوا في سُبب أَلْطَم حتى بلغوا دير القصير على مقرب من حلوان وعكفوا على البحث والتفتيب حتى عثروا على حمار الحاكم الأشهب وقد قطعت ساقاه الأماميتان وعلبه سرجه ولجامه فتتبعوا الأثر ٠٠ فإذا أُنر رجل خلف حمار ٠٠ كما أنهم عثروا على الثياب أيضا وبها عدة آثار لضرب الخناجر وما الى ذلك (٢٠) .

ولما علمت ست الملك بذلك تأثرت تأثرا عظيما وبدا عليها الحزن الشديد وأقامت عزاءه بالقصر ثلاث ليال واستدعت من تحوم حولهم النسبهات وقتلتهم .

وينفرد الأنطاكي برواية فيقول :

أنه قد اعترض الحاكم سبعة من البدو التمسوا منه الصلة بجفاء وغلظة فأجابهم بأن لا يحمل ما لا يدفعه ولكنه يرسلهم الى بيت المال وأخيرا اشتد الجدل والنزاع وانتهى الأمر بأن ذهب أربعة ومعهم الركابي وتخلف ثلاثة منهم ثم عاد الركابي بعد أداء مهمته يبحث عن سيده في المكان الذي اعتاد أن ينتظره فيه فطال بحنه دون جدوى حتى لقيه مساح بالجبل فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفه حمارة فأخبره أنه رأى هذا الحمار في طريقه فسار معه الى الموضع الذي شهد فيه .

وفي صباح اليوم التالي سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل يتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا الى دير القصر وبحثوا في الدير وجميع المواضع التي كان يرتادها فلم يوقفوا له على خبر . ثم عثروا على ثيابه وبها آثار الطعان والدماء ولم يجدوا جثته . فاستدلوا بذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين قتلوه ودفنوه في الجبل ثم أخفوا أثره واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس وكثر في حقه القيل والقال فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر حيث قتل ووجدت ست الملك في بعض صناديقه السكين التي كان يحملها الحاكم في كفه فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة .

ويقول المقريزي : أنه في المحرم ٤١٥ هـ قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفسهم تفرقوا في البلاد وأظهر من جلد رأس الحاكم قطعة وقطعة من القوطة التي كانت عليه فقيل له : لم تقتله ٠٠ فقال غيره لله وللإسلام فقيل له : كيف

قتلته ٠٠ ؟ فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده وقتل نفسه وهو يقول : « هكذا قتلته » .

والحقيقة أن هناك روايات شتى وقصص عديدة عن مقتل الحاكم بأمر الله وكما رأينا فإن الغموض يضرب أطنا به على حياة هذا الرجل كما أحاط به في موته .

ومن عديد الروايات السابقة وبمنظرة فاحصة مدققة نرى أن ست الملك براء من قتل أخيها كما أن الرواية التي تقول أن الحاكم طعنها في شرفها وعفتها رواية لا يقبل بها عقل ولا يصدقها إنسان وقد بلغت ست الملك من العمر عتياً والاتهام لها بهذه الصورة الخلقية بعبء عن الواقع والافتراء فيه ظاهر بين .

وحقيقة الأمر والله أعلم أن الحاكم بأمر الله خرج كعادته لتفقد أحوال رعيته وساقه حماره إلى مكان قصي بعيد عن العمران وقد كان غائب الذهن ، شاردًا في أمر يشغله فالتقى بجماعة من قطاع الطرق . وكان الحاكم كما نعلم زاهداً صوفياً متواضعاً ، وليس عليه علامات الملك والخلافة فظنوه من عامة العامة ، وأرادوا أن يجردوه من ماله ولم يكن معه مال . فقتلوه خشية اكتساف أمرهم وحرصاً على حياتهم ، وأصدق القول بتنفيذ لقضاء الله وقدره وهكذا طوت الأقدار صفحة عطرة لحياة الحاكم بأمر الله بعد عمر حافل بجليل الأعمال وكما أن الغموض والتناقض قد خيما على تاريخ الحاكم كذلك خيما على خاتمة حياته ونهايته « وكل نفس ذائقة الموت » .

المراسيم الاجتماعية الدينية

في سنة ٣٩٥هـ أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغبار وشد الزنار ، ولبس العمام السود ، وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبانا ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع في ذراع ووزنه خمسة أرتال . وأن يعلق اليهود في أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرتال أيضا . وأن تختتم هذه الصلبان والقرامى بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة وحرمة على الفريقين معا ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من حلية ، وألا يستخدموا مسلما أو يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة .

في ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٣م صدر سجل بهدم جميع الكنائس بالديار المصرية وهذا نص المرسوم وقد صيغ في تلك العبارة الموحدة كما يقول المؤرخون :

« خرج أمر الامامة اليك بهدم كمامة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا » - وتزيد الرواية الكنسية فنقول أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن سترين وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزنا .

يقول الأنطاكى (٢١) : « لما رأى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى ، وأنهم يفرون الى بلاد الروم أو الحبشة خفت وطأة المطاردة وصدرت عدة قوانين في سنة ٤١١هـ بإلغاء هذه القوانين اليك منها مرسوم شامل :

بسم الله الرحمن الرحيم . .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا اليه الخوف الذى لحقهم والجزع الذى هالهم فأطلقهم واستأذروهم بظل الدولة ، وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من

(٢١) الإنطاكى في تاريخه : ص ٢٣٢ والحاكم : ص ٧٣ ، ٧٤

كتاب مفتاح الذهب وتاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب ، خطط المقرئى ج ٣ ص ١٧٦

تكميل النعمة عليهم بتوحيه لهم ذمة الاسلام وترعه من نصيرهم تحت كنفه بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتصفو عليهم ملابس السكون والدعة وإجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب فأنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين (صلعم) وعلى اله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على بن أبي طالب سلام الله عليه وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم . هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وماتحتويه أيديكم احسانا صريحا تابعا ، وعقدا صحيحا باقيا فثقوا به ، وأسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحكيم وعصمته تقيكم ، لا يتقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتناول اليكم بمضرة يد الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعة وعظم انكاره مضيئا فيه ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح واصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيدا ، وليقرر في أيديهم حجة بما أصبح من النعم عليهم ان شاء الله تعالى » *

في سنة ٣٩٨هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة ومذهب أهل السنة من خلاف وشغب وهو مرسوم يشف عن روح العصر ويحمل التوفيق بين المذهبين هذا نصه بعد الديباجة :

« فاما بعد .. فان أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين . (لا اكراه فى الدين) .. مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه . معاشر المسلمين . نحن الأئمة وأنتم الأمة .. من شهد الشهادتين . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة عصم الله بها من عصم وحرم عليها ما حرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ، والفساد والافساد من العباد يستنصب ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من اجراء الأمر على ما كانت فى الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام الله عليهم أجمعين ، مهديهم بالله ، وقائمهم بأمر الله ومنصورهم بالله ، ومعزهم لدين الله ، وهو اذ ذاك بالمهدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية ، يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح ولا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها

المربعون ، يؤذن بحى خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف ، والخالف منهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، والى الله ربه ميعاده ، عنده كتابه وعليه حسابه ، ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، الى قوله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(٢٢) .

وقد حدثنا الذهبي عن فساد المرأة أيام الدولة الفاطمية فقال :

« مر فاضى القضاة مالك بن سعيد الفاروقى فنادثه امرأة وأقسمت عليه بالحاكم وأبائه أن يقف لها فوقف فبكت بكاء شديدا وقالت : « لى أخ يموت فما لك الا حملتنى اليه لأشاهده قبل الموت » فرق لها وأرسلها مع رجلين فأنت بابا . فدخلته وكان فى الدار الرجل الذى يهواها وتهواه ، وأتى زوجها فسأل الجيران فأخبروه بالحال فذهب الى القاضى وصاح قائلا : « أنا زوج المرأة وما لها أخ وما أفارئك حتى ترد الى زوجتى » .

فعظم ذلك على قاضى القضاة وخاف سطوة الحاكم . فأخبر أمير المؤمنين بعد أن طلب العفو منه . .

فأمر الحاكم الرجل أن يركب مع الرجلين فوجدوا المرأة والرجل فى ازار واحد نائمين على سكر ، فحملا الى الحاكم وباستجوابهما حملت الرجل النبعة ، وأنه حسن ذلك لها وباستجواب الرجل قال :

« انها هجمت على وزعت أنها خلو من بعل وان لم أتزوجها سعت بى .
ليك لتقتلنى فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله بالمرأة فأحرقت وضرب الرجل ألف سوط .

المصادر والمراجع

- ١ - الفستوى :
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج ٢
- ٢ - ابن أبياس :
- بدائع الزهور : ج ١١
- ٣ - الذهبي :
- تاريخ الاسلام : ج ٣
- ٤ - ابن خلكان :
- وفيات الأعيان .
- ٥ - ابن خلدون :
- كتاب المقدمة .
- ٦ - أبو العباس أحمد :
- صبح الأعشى .
- ٧ - القرizzi :
- المواعظ والاعتبار « الخطط والآثار » .
- ٨ - جمال الدين أبو الحاسن :
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر ج ٤
- ٩ - زكي محمد حسن :
- كنوز الفاطميين .
- ١٠ - عطية مصطفى مشرفة :
- نظام الحكم بمصر في عهد الفاطميين .
- ١١ - النويري :
- نهاية الأرب في فنون الأدب .
- ١٢ - ابن الأثير :
- تاريخ الكامل .
- ١٣ - محمد عبد الله عنان :
- الحاكم بأمر الله .
- ١٤ - أحمد السيد :
- تاريخ مفتاح الذهب في ملوك الاسلام وخلفاء العرب .

الصناعة

في الجزيرة الفراتية إبان القرن السادس الهجري

تأليف

الدكتورة نبوسن محمد نصير
كلية التربية - بنهسا
جامعة الزقازيق

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

تقديم

كانت الحياة الاقتصادية في مدن الجزيرة الفراتية فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين تتوجها الزراعة والتجارة ، وعلى الرغم من ذلك فهناك اشارات غير قليلة الى ان الصناعة كانت تحظى بنصيب لا بأس به في تلك الفترة ، فقد شهدت بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وفرة في رؤوس الأموال وفي المواد الأولية والمهارة الفنية والصناعية ، وانتقل العديد من الصناع المهرة اليها (١) مما جعلها مركزا حيويا يغطي احتياجات العراق ويزود بلاد الشام ومصر وبلاد فارس بسلع وبضائع مهمة ، كالتسوجات والآثاب والآلات والأسلحة وغيرها .

ويوضح ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والمؤرخون عن صفات مدن الجزيرة الفراتية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين الأسس التي قامت عليها تلك الصناعات وأسباب ازدهارها وتطورها وقتئذ .

ولنأخذ أمثلة على ذلك - وليكن :

أولا - المعادن : ومنها النفط - الحديد - النحاس - الأحجار -
الأملاح - رمل الزجاج) .

وقد أشار الاصطخري في القرن الرابع الهجري الى جبل (بارما) وهو جبل تشقه دجلة فتجرى في وسطه ويمتد الى وسط الجزيرة ، وفي الماء ستة عيون للآبار والنفط (٢) ، وهذه الظاهرة الطبيعية وغيرها استمرت خلال القرن السادس الهجري .

ويذكر ابن سعيد المغربي ، أن موقع تكريت وهي آخر مدن الجزيرة مما يلي العراق في أرض يصنع بها النفط (٣) وجاء في مراصد الاطلاع أنه بالقرب من خناقين وهي من مدن الجزيرة ، عين للنفط عظيمة كثيرة الدخول (٤) .

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢١٥ - ابن الاثير ، البداية والنهاية : ج ١٢ ص ١٩١ ، ج ١٣ ص ٢١٤ ابن كثير . تفاصيل ذلك في كتاب صلاح الدين العبيدي ، التحف الموصلة في العصر العباسي ص ٢٤ ، ص ٢٥

(٢) مسالك الممالك : ص ٧٥ : الاصطخري .

(٣) بسط الأرض في الطول والعرض : ص ٩٠ - ابن سعيد المغربي .

(٤) مراصد الاطلاع : ج ١ ص ٣٣٦ - ابن عبد الحق .

والجدير بالذكر أن هذه المواطن التي تحدثت عنها المراجع تمثل في الوقت الحاضر المستخرجات والمناجم الحديثة للنفط في العراق ، فالإشارة الأولى إلى آبار النفط في منطقة الموصل ، والثانية تمثل آبار النفط في كركوك الحالية .

أما القار فيشير إلى وجوده الشائشني في معرض كلامه عن دير القيارة فيقول : تحت عين قير ، وهي عين تغور بماء حار نضب في دجلة ويخرج منه القير ، فما دام القير في مائه فهو لين يمتد فاذا فارق الماء برد وجف (٥) . ويقدم لنا هذا المؤرخ وصفا تفصيليا عن عملية استخراج القير ومعالجة سيولته ، لكي يسهل حمله والاستفادة منه وذلك بتجميده فيذكر أن هناك قوما يجتمعون لجمع هذا القير حيث يغترفونه من مائه بالقفاف ويطرحونه على الأرض ، وكانوا يهيئون له القدور الحديدية الكبيرة حيث يذوب بالتسخين ويوضع فوقه الرمل الناعم المنخول ، ويخلط فاذا بلغ استحكامه قلب على الأرض قطعاً مجمدة فيصطب ويحمل إلى البلدان وزاد بقوله أن هذا القير يستعمل لطلاء السفن وتبليط الحمامات وغير ذلك (٦) .

ويؤكد ابن جبير هذه المعلومة في سنة ٥٨٥هـ (١١٨٤م) حيث قال : « على يمين الطريق إلى الموصل وحدة من الأرض سوداء كأنها سحابة ، فيها عيون كبار وصغار تنبع بالقار وتضع له أحواض يجمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطة على الأرض أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا » .

وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة . وقال بأنهم كانوا يضربون فيها النيران لتخليصه من رطوبة الماء وتجميده بعد ذلك ليسهل تقطيعه ونقله (٧) .

ويؤكد ياقوت استمرار تدفق القار في هذه المنطقة في أيامه عندما يذكر دير القيارة ، فيقول بأنه مشرف على دجلة وتحتته عين القار التي يستخرج منها هذا المعدن بالطريقة التي ذكرها من سبقه (٨) ويشير ابن الأثير إليها بقوله أنها أعجوبة وهي شديدة الحرارة ويسمونها الناس (عين ميمون) ويخرج مع الماء قليل من القار (٩) .

(٥) الديارات ص ١٩٦ - الشباشي .

(٦) الديارات ص ١٩٦ - الشباشي .

(٧) رحلة ابن جبير : ص ٢٠٩

(٨) معجم البلدان : ج ٢ ص ٦٨٩ : ياقوت .

(٩) الكامل في التاريخ : ج ١٢ ص ٤٦٦ : ابن الأثير .

وهناك من أشار الى وجود خامات الحديد في بلاد الجزيرة الفراتية فقد ذكر ابن حوقل الى الشبابة التي كانت تعمل من الحديد وتوضع حول العيون في مدينة رأس العين (١٠) . كما يذكر المقدسي توفر الحديد في مدينة الموصل ، حيث تصنع منه السكاكين والسلاسل الحديدية (١١) واستمرت هذه الصناعات تتزود بالحديد المكتشف في أرض ما بين النهرين (الجزيرة الفراتية) خلال فترة القرن السادس الهجري فيشير ياقوت الى مدينة (جاني) المعروفة بمعدن الحديد حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد (١٢) .

كما أن هناك ما يشير الى سبائك الحديد (أى صهره) حيث تعمل البواتيق من القار والمغرة والطين بالقرب من جبل البشر على حدود الجزيرة الفراتية من أرض الشام (١٣) وفي مدينة ميفارقين حيث كانت تستعمل قوالب لصب الحديد من الأحجار (١٤) .

كما أشير الى أن الحوانيت كانت لها أبواب وصفت بأنها مشط (١٥) من الحديد والمساجد لها شبابة من الحديد (١٦) .

وهناك إشارة الى القوة المغناطيسية حيث قال ابن الفقيه بأن الجبل الذى يقع بالقرب من آمد - متى يحك به السكين أو السيف أو أى جسم من

(١٠) صورة الأرض : ص ٢٠٠ - ابن حوقل وذكر ناصر خسرو بأنه رأى إحدى كنائس النصارى في الجزيرة الفراتية وعليها باب من الحديد لم ير مثله في أى مكان . سفر نامه : ص ١٠

(١١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : ص ١٤٥ - المقدسي .
مدينة (جاني) المعروفة بمعدن الحديد حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد (١٢) .

(١٢) معجم البلدان : ج ٢ ص ١٨٨ - مرصد الاطلاع : ج ١ ص ٢٨٢ - ابن عبد الحق .

(١٣) معجم البلدان : ج ١ ص ٦٣١

(١٤) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - قسم الجزيرة - مخطوطة الورقة ٦٨ ب وهو ما نطلق عليه في الوقت الحاضر اسم « الحيطان الكوتكريتية المسلحة » ابن شداد .

(١٥) نفس المرجع السابق ورقم ٦٩ ١ - ٦٩ ب .

(١٦) تحفة النظار : ص ٢٣٥ - ابن بطوطة .

الحديد فانه يجذب الابر بأكثر من جذب المغناطيس - وتبقى فيه هذه القوة مائة سنة ، وأكد ياقوت تلك المعلومة (١٧) .

أما الأحجار (من مثل الرخام) فأنواعها متعددة منها الأسود والأبيض والأزرق ، وكانت تستعمل في تشييد الجسور (١٨) والدور (١٩) والأسوار (٢٠) والكنائس (٢١) وقد جاء في مرصد الاطلاع بأن منطقة (البلايق) التي تقع بين تكريت والموصل كانت متالح للرخام (٢٢) وقد وصفت هذه الأحجار بأنها صلبة مانعة ، لا يعمل فيها الحديد ولا تضرها النار (٢٣) ، وقيل أنها نقشت وفسرت على الأرض في الكنائس (٢٤) وصنعت منها المياض في المساجد كما ذكر أن سور ميفارقين قد صنع من الحجر الأبيض الذي يزن منه خمسمائة منه كما صنعت الأبراج من هذا الصخر ونحتت فيه (٢٥) .

أما آمد فانها محاطة بسور من الحجار الأسود كل حجر يزن ما بين مائة وألف طن وأكثرها ملتصق ببعضه من قير طين أو جص (٢٦) .

وانشتهر جبل ماردين القريب من نصيبين بالمرمل الصالح لصناعة الزجاج (٢٧) ووصفه ابن حوقل بأنه جوهر الزجاج الجيد ، وقال بأنه كان يحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة الفراتية وبلد الروم ، فيفضل على ما سواه بجوهره فيه (٢٨) وكانت مدينة (القادسية) الواقعة بالقرب من سامراء يعمل فيها الزجاج خلال القرن السادس الهجري (٢٩) .

-
- (١٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : ص ١٣٤ - المفدسى -
معجم البلدان : ج ١ ص ٦٦ - ياقوت .
(١٨) رحلة ابن جبیر : ص ٢١٥
(١٩) معجم البلدان : ج ٤ ص ٦٨٢ ، مرصد الاطلاع : ج ١ ص ٤٣٩
(٢٠) الأعلام الخطيرة - الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب .
(٢١) ناصر خسرو - سفر نامه ص ١٠
(٢٢) مرصد الاطلاع : ج ١ ص ١٦٩
(٢٣) الأعلام الخطيرة - الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب - أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٨٧
(٢٤) ناصر خسرو نامه ص ١٠
(٢٥) ناصر خسرو نامه : ص ٨
(٢٦) المرجع السابق .
(٢٧) مسالك الممالك : ص ٧٥ للاصطخرى . تقويم البلدان : ص ٢٧٩ أبو الفدا .
(٢٨) صورة الأرض : ص ٧٥ - ابن حوقل .
(٢٩) المشترك وضعاً والمفترق صقعا : ص ٣٣٧ - ياقوت .

ومن المحتمل جداً أن يكون ما أشار اليه ياقوت حول صناعة الخزف في بلاد فارس (المأخوذة عن بلاد الصين) كانت قائمة في الجزيرة الفراتية في تلك الفترة حيث كان يؤخذ الحصى والكلس القلعي رمل الزجاج ثم يعجن على اليوازين وينفخ ويعمل بالماسك ، كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني (٣٠) .

ويبدو أن رمل الزجاج قد استعمل لأغراض مختلفة في صناعة واجهات المساجد والمراقد وشبابيك البيت وداخل الأسواق والقيساريات ، كما ورد استعمال الزجاج مع الرخام (٣١) لأغراض مماثلة . ويصف القزويني حمامات مدينة سنجار بأنها مكونة من جامات ملونة مثل الحمراء والصفراء وهي مرتبة كالنفوش فالجالس في الحمام كأنه في بيت مدبج (٣٢) .

وفي بعض مدن الجزيرة الفراتية ، يقتلع الملح من البراري والسبائخ المنتشرة في وسطها ثم ينقى وتجهز به المدن (٣٣) . ويذكر ياقوت (٣٤) ما يشير الى وجود ملاحه في جزء من وادي الثرثار حيث تقل الأمطار في الصيف وتتبخر الماء من بعض أقسامه أما ملاحه حلب الواقعة بالقرب من قرية الجبول فقد كان يؤخذ منها الكثير من الملح الذي يرسل الى بلاد الجزيرة والشام وقد كان يقدر عائدها في كل سنة بمائة وعشرين ألف درهم (٣٥) .

-
- (٣٠) معجم البلدان : ج ٣ ص ٤١٩ - ياقوت .
(٣١) صورة الأرض : ص ٢٠٥ - ابن حوقل .
(٣٢) آثار البلاد وأخبار العباد : ص ٣٩٣ - القزويني .
(٣٣) صورة الأرض : ص ٢٠٥ - ابن حوقل .
(٣٤) معجم البلدان : ج ١ ص ٩٢١ - ياقوت .
(٣٥) مراصد الاطلاع : ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، معجم البلدان : ج ٢ ص ٢٩ - ياقوت .

صناعات الخمر والسكر

انتشرت صناعة الخمر في أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، وقد زاول
صناعتها النصارى وبرعوا في صناعتها في أديرتهم وكنائسهم منذ القرن
الرابع الهجرى حيث ذكر الشاذلى في كتابه الديارات معلومات غير قليلة
عن صناعة الخمر التي كان يهتم بها الرهبان ورجال الكنيسة وغيرهم من
المسيحيين (٣٦) الذين استمروا في صناعتها وتعاطيها خلال القرن السادس
الهجرى .

فقد أشار العمري في كتابه مسالك الأبصار الى الشراب المفضل في
اللون والرائحة والعنق في أكثر أديرة النصارى ففي هذه الفترة وخاصة
في دير الزعفران بالقرب من علثايا (٣٧) وخمر دير عمر أحويشا باسعد المثل
على مدينة أرن الذي يحمل منه الكثير الى البلدان لجودته (٣٨) .

كما ينسب الى دير (أكن) الخمر الموصوف في نهاية الجودة ، وقد
قيل عنه بأنه « لا يورث الخمر » (٣٩) أى (لا يسكر بأفراد) والى « قطريل »
وهى قرية بين بغداد وعكبرا من أرض الجزيرة بنسب الخمر الجيد ، وهى
ما زالت متنازها للبطالين وحانة للخمارين على حد قول ياقوت (٤٠) .

وبنفس الطريق تقع قرية (القفص) التي يقال عنها بأن فيها الخمر
الجيدة والحانات الكثيرة (٤١) .

(٣٦) الديارات : ص ١١٧ - الشاذلى .
(٣٧) مسالك الأبصار : ج ١ ص ٢٥٥ - العمري .
(٣٨) مراصد الاطلاع : ج ١ ص ٤٢٣ ، مسالك الأبصار : ج ١
ص ٣١٠

(٣٩) معجم البلدان : ج ٢ ص ٦٤٤
(٤٠) معجم البلدان : ج ٤ ص ١٣٣
(٤١) معجم البلدان : ج ٤ ص ١٠٥ : وأشير الى توفير الزيت في مدينة
سروج الواقعة الى شمال حران حيث يصنع (الرب) الذى يدخل في صناعة
(الناطف) وهو نوع من الشراب الذى كان يتناوله الرهبان في أديرتهم
وكنائسهم أثناء الطقوس الدينية : ابن حوقل : صورة الأرض : ص ٢٠٧ -
ابن شداد : الإغلاق الخطيرة مخطوطة الجزيرة - الورقة ٣١ أ .

وجاء في كتاب رسائل ضياء الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وصفا شيقا للخمرة ومجالسها في الموصل ، وبعض مدن الجزيرة الفراتية ، وأشار الى تناولها في محضها أى خالصة أو في (مذاقها) أحيانا أى بعد مزجها بالماء (٤٢) .

وهناك نوع من الشراب يعمل من الشعير ويعلوه الزبد (الفقاع) وقد أشار أسامة بن منقذ الى هذا الشراب الذى كان يصنع في مدينة حصن كيفا سنة ٥٦٨هـ - ١٢٧٢م ويجلب الى المدن الأخرى ومنها الموصل (٤٣) .

لدينا ما يشير الى أن هناك صناعة تقابل صناعة تعليب وتجفيف الفواكه والخضر واللحوم والأسماك في الوقت الحاضر في بعض المدن خلال القرن السادس الهجرى ، وقد أشار الى وجودها قبل هذه الفترة المقدسى البشارى في مدينتى نصيبين والحسنية ، ففيها الفواكه المقددة (١ى الجزوة والمفرومة والمقطعة) و في مدينة الموصل الطريخ الفائق (١ى السمك الذى يملح ويكبس ، كما أن فيها وفي مملكتنا اللحم المجفف النيبى (٤٤) .

أما صناعة العطور التى كانت تقوم على الورد وتقطيره واستخلاص عطره (٤٥) فيبدو أن مدينة نصيبين كانت قد اقتصت بها حيث كان يجلب منها ماء الورد الى الآفاق (٤٦) .

واستمرت نصيبين في صنع ماء الورد الذى لا نظير له حتى أواخر القرن السابع الهجرى (٤٦) .

وأشار الصفدى الى اللاذن في الموصل الذى يبخر فيقطع الرائحة الرديئة (٤٨) وكانت العطور تعرض في حوانيت لبيعها في سوق العطور في مدينة الموصل (٤٩) .

(٤٢) رسائل ابن الأثير (تحقيق أنيس المقدسى - بيروت ١٩٥٩) ص ١٧٢ - ١٧٣ - ضياء الدين ابن الأثير .

(٤٣) كتاب الاعتبار : ص ١٧٧ - أسامة ابن المنقذ .

(٤٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ١٤٥ : المقدسى .

(٤٥) قوات الوفيات في معرفة : ١٧١ - ابن شاکر الكتبى .

(٤٦) مسالك الممالك : ص ٧٦ - الاصطخرى .

(٤٧) تحفة النظار : ص ٢٣٦ - ابن بطوطة .

(٤٨) نكت الهميان في نكت العميان : (ط أحمد زكى بك ١٩١١م -

١٥٦ - الصفدى) .

(٤٩) ذيل مراة الزمان ج ٢ ص ٢٦٢ - سبط بن الجوزى ، جاء عند

الخطيب العمري أن في الموصل خلال القرن السابع الهجرى احدى عشر دكانا لبيع السمك . منهل الأولياء - ج ١ ص ٦٠

وصنعت العطور من أنواع الورد ومنها (الخلق) وهو ضرب من الطيب يعمل من ورد الزعفران وتغلب عليه الحمرة والصفرة(٥٠) . وقد شاع استعماله في عصر ابن سعيد المغربي حيث ذكر كذلك الورد الأبيض الذي كان يعم ماء ورده بلاد الدنيا ويفضل على سائر أنواعه(٥١) كما يعمل من ورد اللينوفر الذي كان يكثر في مدينة نصيبين وكذلك من ورد النرجس(٥٢) ويبدو أن مدينة نصيبين كانت قد اختصت بتقطير الورد واستخلاص عطرها وكان يجلب منها ماء الورد وعطره الى الآفاق .

ومن أنواع العطور التي يشير الى صناعتها ياقوت في مدينة داريا بالقرب نصيبين « المحلب » الذي كانت تتطيب به الاعراب(٥٣) .

أما السكر فقد عرفت صناعته في مدينة الموصل وخاصة صناعة السكر النادر الأسمر الذي أشار اليه ابن الأثير ويبدو أن صناعته كانت محدودة وكان السكر الأبلوج المصري يغطي حاجات الناس في تلك الفترة لذلك لم تقدم المراجع معلومات تفصيلية وكافية عن صناعة السكر في مدن الجزيرة الفراتية . ولعل سكر الأهواز وهو أردأ أنواع السكر هناك كان يجلب الى تلك البلاد(٥٤) .

كما أشار القلقشندي الى وجود عمل قصب السكر(٥٥) ويبدو أن صناعته قد شاعت في بلاد الشام والجزيرة أيام الأيوبيين .

(٥٠) الديارات : ص ١٩٦ : الشابثي .

(٥١) بسط الأرض في الطول والعرض : ص ٨٩-٩٠ - ابن سعيد المغربي

(٥٢) فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٧٦ - ابن شاكر الكتبي .

(٥٣) معجم البلدان : ج ٢ ص ٥١٦ - ياقوت .

(٥٤) التبصر بالتجارة : ص ٣٢ - الجاحظ .

(٥٥) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٤٣ - القلقشندي .

وبعد ..

أرجو أن أكون وفقت بهذه البحثة الى القاء بعض الضوء على نموذج
من نماذج الحضارة في مدن الجزيرة الفراتية عبر القرن السادس الهجرى ،
وان كنت قد تجاوزت فليس عن تقصير ، وأرجو الله أن يوفقنى ما وسعتنى
المقدرة لبلوغ الغاية العلمية المنشودة .

والله أسأل التوفيق ٤

د . سوسن محمد نصر

المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير :

عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م) .
الكامل في التاريخ - مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٢ - ابن بطوطة :

محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي الطنجي - (ت ٧٧٩ هـ)
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - دار صادر -
بيروت ١٩٦٠

٣ - ابن جبير :

محمد بن أحمد الناني الأندلسي - (ت ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م) - رحلة
ابن جبير (دار صادر - بيروت - ١٩٥٩) .

٤ - ابن حوقل :

أبو القاسم النصيبى - (ت ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م) - صورة الأرض -
الطبعة الثانية - مطبعة بريل - ليدن - ١٩٣٨ م .

٥ - ابن شاكر الأكتبي :

محمد بن أحمد - (ت ٧٦٤ هـ - ١٣٦٢ م) - فوات الوفيات : ج ١
و ج ٢ - مطبعة السعادة - مصر - ١٩٥١ م .

٦ - ابن شداد :

عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم - (ت ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) -
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - (قسم الجزيرة) -
مخطوطة في مكتبة جامعة اكسفورد رقم

٧ - ابن عبد الحق :

عبد المؤمن - (ت ٧٣٩ هـ - ١٢٣٨ م) - مراصد الاطلاع على أسماء
الأمكنة والبقاع - ٣ أجزاء - تحقيق على البجاوى - الطبعة الأولى -
دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥٤ م .

٨ - ابن كثير :

اسماعيل بن عمر الدمشقي - (ت ٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م) - البداية والنهاية
في التاريخ - (١٤ جزء - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٣٢ م .

٩ - ابن منظور :

جمال الدين محمد بن مكرم - (ت ٧١١ هـ - ١٣١١ م) - لسان
العرب - ١٥ جزء - دار صادر - بيروت .

١٠ - ابن المقفد :

أسامة الكنانى الشيرزى - (ت ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م) - كتاب الاعتبار
- تحقيق فيليب متى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة -
١٩٣٠ م .

١١ - أبو الفداء :

عماد الدين اسماعيل صاحب حماة - (ت ٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م) - تقويم
البلدان - طبعة باريس - ١٨٤٠ م .

١٢ - الاصطخرى :

أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى - (ت ٣٤١ هـ - ١٩٥٢ م) -
مسالك الممالك - دي غويه برييل - ليدن - ١٩٢٧ م .

١٣ - الجاحظ :

أبو عمرو بن بحر البصرى - (ت ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م) - كتاب التبصير
بالتجارة - نشر حسن حسنى عبد الوهاب التونسى - الطبعة الثانية
- ١٩٣٥ م .

١٤ - الخطيب السمرى :

محمد أمين بن خير الله الخطيب (توفى فى القرن الثالث عشر الهجرى)
- منهل الاولياء وشرب الاصفياء من سادات الموصل الحذباء - ج ١

١٥ - سبط ابن الجوزى :

شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى بن عبد الله البغدادى -
(ت ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م) - مرآة الزمان - مطبعة مجلى - دائرة المعارف
العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند - ١٣٧٠ هـ .

١٦ - الشاشتي :

ابو محسن على بن محمد - (ت ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م) - الديارات -
تحقيق كوكيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٥١ م .

١٧ - الصفدي :

صلاح الدين خليل بن ايوب بن ابيك - (ت ٧٦٤ هـ - ١٢٦٥ م) -
نكت الهميان في نكت العميان - (نشرة أحمد زكي بك - ١٩١١ م) .

١٨ - ضياء الدين ابن الاثير :

محمد بن عبد الكريم الجذري - (ت ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م) - رسائل
ابن الاثير - تحقيق أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - بيروت -
١٩٥٩ م .

١٩ - العمري :

شهاب الدين بن فضل الله - (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) - مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار - ج ١ - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة -
١٩٢٤ م .

٢٠ - القرزيني :

زكريا بن محمد بن محمود - (ت ٨٦٢ هـ - ١٢٨٣ م) - آثار البلاد
وأخبار العباد - دار صادر - بيروت - ١٩٦٠ م .

٢١ - القلقشندي :

أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري - (٧٢١ هـ - ١٤١٨ م) - صبح
الأعشى في صناعة الانشا - ١٤ جزء - المطبعة الأميرية - دار الكتب
المصرية - القاهرة - ١٩١٣ - ١٩٢٢ م .

٢٢ - المقدسي البشاري :

محمد بن أحمد - (ت ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م) - أحسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم - تحقيق دي غويه - مطبعة برييل - لندن - ١٩٠٦ م .

٢٣ - ناصر خسرو :

علوى (القرن الخامس الهجرى) - سفر نامه - بالفارسية - ترجمة
الدكتور يحيى الخشاب - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٤٥ م .

٢٤ - ياقوت الحموى :

شهاب الدين أبو عبد الله الرومى البغدادى - (ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م
- معجم البلدان - لبيبك ١٨٦٦ - منشورات مكتبة الأسدى - طهران

الحركة الفلسفية في ظل الاختلاف الفصائلي

تأليف

الدكتور محمد بن محمد بن
كلية التربية - بنها
جامعة الزقازيق

(حقوق الطبع محفوظة)

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

تمهيد :

لا ريب أن البيئة عنصر فعال في حياة الباحث . وما يحيط به من ظروف هي البوتقة التي تنصهر فيها ثمرة جهده وبجأته . ويخرج منها سبيجا جديدا ذا طابع مؤثر قدر عمق دراسته وأبحاثه . ومصر منهل ينهل منه كل راغب علم ، فلا عجب أن أتجه بهذه البجأة لألقى سماعات من نور على صفحة مشرقة في عصر من العصور الخالية ، وعلى جانب من جوانب الحضارة المصرية لأبرز مشهدا فلسفيا حضاريا ازدهر في عصر الخلافة الفاطمية .

وعندما بدأ الاسماعيليون من أجل خلافة عروية فاطمية أرادوا بها طابعا خاصا بها في قلب مصر الاسلامية مهد الحضارة والاصالة والعراقة رغم ما كان للظروف العسكرية والسياسية من أنار في الدولة العباسية والنفي حتمت اقامة دولة فاطمية في بلاد المغرب .

ودار الزمان دورته لتتبدل الجهود الفاطمية من نفل الخادفة الى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبد الله المهدي ، حتى نجح الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمي في فتح مصر واتخذ منها مقرا ومركزا للخلافة الفاطمية وبذلت الجهود لتوطيد هذه الخلافة في مصر وبذر بذور الحضارة الفاطمية في أرضها الخصبة فترعرت وبلغت شأوا من البقاء والنماء حتى جنى المسلمون ثمارها ، التي أينعت قطفها وكذلك العالم أجمع ، ولئن انت هذه الجهود ثمارا لهذه الحضارة الناهضة فما هوذا الصقلى يضع أسس مدينة عظمى ولدت عملاقة شاهرة لواء الفكرة والحضارة منسنا جامعة أزهرية من أوليات جامعات العالم وأبرزها وأرساها تاعدة ومنذ عهد الخليفة الفاطمية ابتداء حتى آخر خلفائهم العاضد بالله وعم يسياطرون المصريين أحوالهم في الرخاء والشدة ، وبذلك أصبحت مصر قاعدة للفاطميين ووزارة في سماء المعمورة تنافس بغداد العباسية وقرطبة الأموية . فوجود مصر عند التقاء قارات ثلاثة وكذا وجودها عند التقاء أعظم بحرين في العصور الوسطى جعل من الحضارة الفاطمية كيانا سامقا عالميا فضلا عن الترميمية التي أوجبت على المسلمين جميعا أن يتجهوا بالولاء السياسي والديني باعتبارها مركزا للخلافة الفاطمية الجديدة ولقد أصبح بعض الخلفاء الفاطميين على البحر الأبيض المتوسط طابعا فاطميا فأصبح بحيرة فاطمية ، فضلا عن سيطرتهم الواضحة على بعض جزره بالاضافة الى ما أقاموه من علاقات وثيقة مع دول أوربا ، وكذا امتد ظل النفوذ الفاطمي الى بلاد الشام والحجاز واليمن كما كان لهم علاقات خارجية امتدت شرقا وغربا وكانت تتسروح بين الصداقة والعداء مما كان له أنر في عالمية الفكر في العصر الفاطمي اذ لم يعد فكرا علميا اقليميا .

واهتم الفاطميون بالانتشاط العلمى الثقافى منه والتعليمى فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة أدى الى اهتمامهم باؤسسات التعليمية وجعل قصورهم مراكز ثقافية ، وضمت هذه القصور مكتبات ضخمة بذلوا فيها المال والجهد وجمعوا فيها كتباً فى علوم شتى من أرجاء البسيطة وأصبحت القاهرة كعبة العلم ومنازة العلماء والأدباء والفقهاء فضلاً عن أن هذا العصر عايش الجهاد الإسلامى لمواجهة الحملات الصليبية مما أدى الى التقاء الثقافة الشرقية بالثقافة الغربية فجعل منها فكراً فاطمياً متميزاً له سماته وخصائصه واتجاهاته ونتائجه . وعلى الرغم من أن هذه المرحلة الفاطمية شهدت صراعاً فكرياً بين أهل السنة والشيعة فإن هذا الخلاف كان ظاهرة صحية فى المجالات الفكرية أثبتت حيوية الأمة الإسلامية ونتج عن الجدل والحوار والنقاش ثراءً فكرياً ونشاطاً علمياً . وإذا ولينا وجهنا شطر الدراسات الاجتماعية وتخيرنا إحدى العلوم العقلية التى كانت فى نمو مضطرد إلا وهى الدراسات الفلسفية سنجد أنه قد ظهر عدد غفير من أعلامها ساعد على بروزهم وظهورهم أن الفاطميين أفسحوا صدورهم لهذه الدراسات الفلسفية حيث كانت العقائد الفاطمية وقتئذ ميداناً فسيحاً للعقل ومجالاً هائلاً أدى الى ازدهار الحركة الفلسفية التى كانت فى أغلبها تتبع عقائد الفاطميين والفلسفة فى نظر الإسلاميين واحدة من مجموعة علوم الأوائل كما أطلقوا عليها ذلك « أو علوم القدماء » أو « العلوم القديمة » وهو اسم أطلقه هؤلاء الكتاب على تلك العلوم التى نفذت الى البيئة العلمية الإسلامية بتأثير هذه المؤلفات المأخوذة عن الكتب اليونانية تأثيراً مباشراً أو غير مباشر وهى التى أطلقوا عليها كتب الأوائل فى مقابلة علوم العرب وفى مقابلة العلوم الشرعية . وفى مقدمة هذه العلوم - الرياضيات - الطبيعيات - الالهيات . مما احتوته دائرة المعارف اليونانية أى الفروع المختلفة من رياضة وفلسفة وطب وطبيعة وفلك وموسيقى . ونظراً الى أن الاشتغال بهذه العلوم قد ارتبطت التقاليد الأفلاطونية المحدثه قد أدخل فى علوم الأوائل وعلوم الفلسفة ممارسة علوم السحر والظلمسات والنيرنجيات الى جانب علم التنجيم (١) .

دراسة نقدية تحليلية

والغرض من نقاط هذه البحثة أننى سأحاول قدر طاقتى ألقاء بعض الضوء على هذا الفرع من التراث الفاطمى .

فمؤيد الدين الشيرازى قد صور لنا عقائد الفاطميين تصويرا بينا فى ديوانه كشف لنا عن تعمقه فى فلسفة الدعوة الاسلامية مشيرا الى الولاية والتوحيد كما يتضح ذلك فى قصائده التى هى دعوة الى وجوب طاعة الأئمة (٢) .

كما تعرض المؤيد فى ديوانه أيضا لمبدأ التأويل والمجاز القرآنى والرأى والقياس ونظرية المثل والمثول ، فالاسماعيية يذهبون الى القول بأن النبى صلوات الله عليه علم تأويل ما أتى به وعند أخذ الراسخون فى العلم ما أخذوا كما وأن من قام مقامه فى كل عصر كان يعلم هذا التأويل علما يقيذ وأن القرآن الكريم لا ينضب معينه ولا تنتهى كنوز معانيه ، وأن له من عمق المعانى غير المعانى المتداولة على السنة العامة والتى تعتبر سير المجاز القرآنى فى عمق معانيه لا فى لفظه كما يذهب الاسماعيليون الى هذا القول (٣) . ويعتقد الاسماعيليون أن الامامة هى قيادة للعالم وتوصيل حقيقة المعرفة اليه مما يجعل وجود مرشد فى كل زمن وعصر ليمحو جهل الناس فى هذا العصر أمرا حتميا للامامة - ومن هذا المنطلق فأنهم يعتبرون عليا وذريته هم الأئمة الذين اختصوا بتأويل القرآن دون سواهم من عامة الناس . وطعن الفاطميون بالقياس فى التعبير والفقه وفى فتاوى الصحابة واعتبروا أن الفقهاء الأوائل من أهل المذاهب قد حرفوا القرآن الكريم وأنهم لم يفهموا معناه ولم يتعدى فهمهم معانى اللفظ (٤) .

وقطع الاسماعيليون بأن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت وأن هذه العلوم هى علوم الباطن ومن هنا جاءت تسمية الباطنية لأن قوام عقيدتهم إيماننا بهذا العلم .

ولقد أطلقوا نظرية المثل ، والمثول هو استخلاص الباطن من الظاهر فعندهم المثل بالظاهر والمثول بالباطن ولكل مثل ممثل كما أن لكل ظاهر

(٢) أنظر ديوان المؤيد ص ٦١

(٣) أنظر ديوان المؤيد : ص ١٠١

(٤) نفس المصدر : ص ١٠٤

باطن والحق تبارك وتعالى يضرب الأمثال للناس وبواطن هذه الأمثال أو ممثلوها فان علمه عند الأئمة لأنهم وحدهم أصحاب علم الباطن أى تفسير الأمور العقلية غير المموسة بما يقابلها من الأمور الجسمية المحسوسة وهذا الاسم من أقوال الفاطميين اذ جعل الله للناس مثالا دالا على ممثوله فعرفوا الممثل بمثله ويتضح ذلك فى قوله عز وجل « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون(٥) » .

وتصور هذه الآية ما أخفاه الله سبحانه من الممثل وسقته وجعل مثله طريقا الى معرفته امتحانا لعباده .

ولقد كان للمؤيد وجهة نظر على ما أخذت به الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن وأنكرتها وأثبتت أن الرؤية تنقسم قسمين اثنين :

أولهما محسوب - وثانيهما معقول ، وهى رؤية العقل . فالبصر القاصر لا يتعدى البصرات الحسية والعقل المحدود لا يدرك الا المدركات العقلية . ومن هنا فان الرؤية اما أن تكون رؤية حسية أو رؤية عقلية وبذلك يكون المؤيد قد دحض المثبتين لرؤية الله تعالى سواء بالابصار أو بالعقول . مخالفا بذلك أهل السنة الذين أثبتوا صفات الله مخالفين للمعتزلة الذين رفضوا الصفات . ولقد اتفقت وجهة نظر المؤيد مع التأويل الاسماعيلى فيما ورد فى آيات كتاب الله من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية . فهو يرى أن معنى اليد هى النعمة وهى القوة كما أن رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل بعض السور « ي - س ، ألف ، لام ، ميم » يطابق رأى الاسماعيلية الذين يتولون بالتأويل وهو يرى أن هذه الحروف سر خفى لا يعلمها الا خزنة علم الله(٦) ولقد تعرض المؤيد لقصاص الأنبياء ونهج فيها نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا اليه عن الأنبياء بقولهم أنهم معصومون رغم ما يتدينه القارىء للقرآن الكريم لبعض قصصهم التى تشير الى أنهم غير معصومين ولقد قال الفاطميين :

ان لهذه الآيات تفسيرا ظاهريا وظاهرها ما قال به جمهور المفسرين أما باطنها فانه يشير الى عصمة الأنبياء كما سمي الفاطميون الأنبياء بالنطقاء لأن النطق كما قالوا قسمان : أحدهما ما يتميز به الانسان عن البهائم وهو

(٥) سورة الزمر : ٣٩ - ٢٧

(٦) د . حسن ابراهيم حسن - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٩٨

النطق عما في الدنيا والآخر النطق عما في الدار الآخرة ، الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب (٧) .

ومن هنا يمكننا ان نجمل القول عن الفلسفة الفاطمية كما ارادها فيلسوف دعوتهم مؤيد الدين الشيرازى وكما صورها على أسس هي :

- ١ - توحيد الله وتنزيهه عن الشريك والقرين .
- ٢ - الايمان بالانبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ وأن محمدا صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين .
- ٣ - الاعتقاد بوصاية على بن أبى طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعا .
- ٤ - الايمان بما جاء به القرآن الكريم والعمل بتعاليمه ظاهره وباطنه .
- ٥ - اعتبار الراى والقياس باطلين فى كل أمور الدين والاخذ عن الأئمة .
- ٦ - الجمع بين الظاهر والباطن أى أنه لا يقبل ظاهر دون باطن ولا باطن دون ظاهر (٨) .

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية الدعود الشيعية قواما لها كما يتبين القارىء مما سلف فضلا على أن الخلفاء الفاطميين لبثوا ثوب الامامة الدينية فى ظروف مجهولة (٩) واتخذوا الفلسفة سبيلا الى نشر عقيدة دينية وضح غرابيتها يوما فى كافة الأوساط السنية فى مصر فى وقت كان المذهب السنى يدهش هذه الفلسفة ، لما به من وضوح لا يحتاج الى عون الفلسفة ولأن مصر بطبيعتها تستجيب للعاطفة دون العقل فانها قد اندفعت ومالت ميلا شديدا تتحمس للدين تحمسا قويا وأن بغضها للعلوم العقلية كان سببا ظاهرا فى أن تحرم من الانتفاع بفلسفة الاسكندرية قبل مجيء الاسلام كما حرما ذلك أيضا من الانتفاع بفلسفة الفاطميين ولقد شن المصريون حربا شعواء على فلسفة الاسكندرية واعتبروها فلسفة وثنية ولقد آزر شعب مصر هذه الحركة المضادة حتى ضعفت مدرسة الاسكندرية وتعرضت للضياع والتلف قبل ظهور الاسلام .

(٧) مقدمة ديوان المؤيد : ص ١٣٢ ، ص ١٥٢

(٨) مقدمة ديوان المؤيد : ص ١٨

(٩) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله : ص ٢٥٢

وقد أجهز الاسلام على البقية الباقية منها لأن موقف المصريين من الفلسفة والدين لم يتغير بين رفض واستجابة (١٠) .

ان فلسفة الفاطميين بدء أمرها اضطرت المصريين وغيرهم الى التفكير وبدأ الدعاة والقضاة في قيادة هذه الحركة وقطعوا شوطا لا بأس به وكان من حق هذه الفلسفة الفاطمية أن تثبت قدمها في مصر وأن تؤثر فيها تأثيرا قويا ما دامت بعيدة عن الاسراف والعلو اللذين كانا صفتا فرق أخرى شيعية ، وأن يكون نتيجة لهذا كله أن يظفر المصريون بعظمة المكان في تاريخ الفكر والحركة الفكرية ومقتد لم تكن عظيمة في مصر ولو أن الفاطميين عاشوا فيها أتواء أكثر من هذا كما لو أن المصريين أزروا خلافتها ونحسوا للحركة تحمسا قويا أو لو أن صلاح الدين لم يأت الى مصر لازالة هذه الخلافة ولكن الدولة الفاطمية قضت أيامها بالديار المصرية والتي تزيد عن قرنين كاملين فرقت بين علم يصلح للعامه وعلم لا يصلح الا للخاصة والبست هذه التفرقة نوبا من الدين وان كانت هذه التفرقة لا غبار عليها من الناحية الديمقراطية البحتة فان المذهب السني بنوع خاص قد ناصر الديمقراطية العلمية مناصرة حببت فيه الشعب وأساء ظنه بالعلوم الفاطمية التي سميت « بعلوم آل البيت » وهذه دلالة على أن مصر لا تستطيع صبرا المضي طويلا في حركات فكرية عنيفة تكلف عقلها فيها مشقة وعناء وتمضى فيها مصر على نحو ما كانت تمشي المدن القديمة المعروفة (١١) .

والعصر الفاطمي في مصر من أبهى العصور الاسلامية من الناحية العلمية التي بلغت شأوا هائلا من الازدهار والنمو وكثرة العلماء الذين كانوا بمصر أو وفدوا اليها وتعدد المؤلفات المختلفة من كل الفنون والعلوم . كما أن أئمة الدعوة الفاطمية سجعوا العلماء وقربوهم اليهم وأوقفوا أرزاقا ثابتة لطلاب العلم والمشتغلين به وأتاحوا لهم فرصة التفرغ لما أهلوا أنفسهم له ولقد عرفنا عن اهتمام الفاطميين بإنشاء خزائن الكتب في القصور كما هو في دور العلم حتى يتسنى للطلاب والعلماء حسن الاطلاع وعظيم الاستفادة من تراث السابقين (١٢) .

وذلك كان مأوى وحماية للأئمة من الفاقة والعوز علاوة على أنه كان حافزا لهم ودافعا على مواصلة البحث والتأليف والدراسة (١٣) .

(١٠) د . عبد اللطيف حمزد - الحركة الفكرية في مصر : ص ٣٦٨ ،

(١١) الدكتور عبد اللطيف - الحركة الفكرية : ص ٣٦٩

(١٢) القاضي نعمان - المجالي والمسائرات - ورقة ١٤٦

(١٣) الدكتور محمد كامل حسين - في أدب مصر الفاطمية : ص ١٦٦

فقاهرة المعز لدين الله يومئذ كانت مطمعا لأنظار العلماء وغاية ومحط رجال العلم ، فاننتزعت دعامة العالم الاسلامي وبسطت آرائها وتعاليمها على البلدان ، حتى أن بعض العلماء الذين كانوا ينقمن على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر ويتأسون ببعض الآراء السائدة فيها وقتئذ .

وخير تبيان لذلك الامام الغزالي الذي هاجم الفاطميين في كتبه القسطاسي والمنقذ من الضلال والمستظهرى والرد على الباطنية وغيرها من الكتب ولكنه بعد وفادته على مصر وفي أواخر أيامه ألف كتاب « مشكلة الأنوار » متأثرا ببعض العقائد الفاطمية ولا سيما نظريتهم في تدريب العقول ، ولقد ساند أئمة الفاطميين العلم والعلماء لأن مذهبهم يقوم على العلم والعلم قبل كل شيء وبالجدل العلمى والمناظرات انتشرت الدعوة الفاطمية في العالم الاسلامي واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العقيدة وأساس عقيدتهم العلم والعمل، والعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول ولا غرو أن رأينا تشجيع الفاطميين للعلم الذى هو فى حقيقته أرسى قواعد العقيدة الفاطمية ولقد كان للفلسفة اليونانية وقديم المذاهب الدينية أثر بين على أرباب هذه الدعوة وعلمائها فكان اهتمام الفاطميين بمختلف ألوان هذه الدراسات الفلسفية والمذهبية أحد ماأربين أما الرد عليها وتهجينها واما ادخال بعض عناصرها فى عقيدتهم هذا على جانب وعلى الجانب الآخر كان أهل السنة فى البلدان الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والاحاد(١٤) .

ويقول أحد العلماء كيف وصف أهل السنة الفلسفة فيقول : « أن الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة(١٥) فالفكر اليونانى كان مؤثرا أساسيا فى الفكر الفاطمى الذى توسع فى دراسته ولقد لاحظ المستشرق أوليرى ذلك فقال أن مكانة الحركة الفاطمية الفكرية جلها مشبعة تشبعا كاملا بالفكر الهيلينى واحياء دراسة المواد اليونانية والالهام المباشر للطائفة الاسماعيلية(١٦) .

ولقد استدعى العزيز بالله جبرائيل بن بختيشوع الى مصر فاعتذر(١٧) وأرسل الحاكم بأمر الله الى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب :

(١٤) دكتور محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ص ٢٦٧ ،

٢٦٨

(١٥) دكتور عبد اللطيف حمزة - الحركة الفكرية فى مصر : ص ٣٣٥

(١٦)

(١٧) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء : ص ١٠٥

وكتب الوزير الفلاحى الى وادى حلب فى طلب أبى العلاء المعرى (١٨) الى مصر وليبنى له دار علم يكون متقدما فيها وسمح له بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده ولكنه استعفاه من ذلك فأعفاه .

وهذا يبين مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية ولكل من اشتغل بفروع من فروعها .

ويقول المقرئى أن من حملة المعرفة عند الفاطميين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة (١٩) .

ولعل من أهم أسباب دعوة الفاطميين الى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى الى تبديلها ومن هنا فإن حاجتهم الى اللسان والجدل المؤيد بالفلسفة حتى يحسن ذلك (٢٠) - وبالنظر المدققة للحياة العقلية فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع وما بعده نرى تأثير العلماء تأثرا بينا بهذه الآراء التى روجها دعاة الفاطميين ونرى هؤلاء الفلاسفة النابغين فى نفس القرن الرابع الذين كانوا على مقربة وصلة من العقائد الفاطمية والعقائد الشيعية عامة فإن حوقل الذى كان متشيعا لهم والذى قيل أنه من دعائهم والفارابى فى حديثه عن التوحيد (٢١) وقد قيل أيضا أن ابن سينا اسماعيلى المذهب وأن آباء أحد دعائهم فنشأ متأثرا بعقائدهم وجماعة اخوان الصفا الذين ازدهروا فى ظل البويهيين الذين كانوا يميلون الى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يرأس الخليفة الفاطمى وظهرت فى رسائل اخوان الصفا اسماعيليتهم وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر الله الفاطمى وعاش فى كنفه وأبو العلاء المعرى حكيم المعرة كان متأثرا تأثرا كاملا بهذه الآراء التى كانت تحيط به فقد امتد ظل الحكم الفاطمى الى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين انتشارها فى كل البقاع التى خضعت أو لم تخضع وتذكر أحمد صيد الدين بن عبد الله الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها فى العراق (٢٢) ونذكر المؤيد فى الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها ولقد نبغ فى عهد العزيز بالله كثير من العلماء منهم أبو الحسن على بن رضوان الطيب الفيلسوف الذى وضع كثيرا من الكتب الفلسفية

(١٨) د. محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٨

(١٩) المقرئى : الخطط : ج ١ ص ٣٩٥

(٢٠) شوقى ضيف - الفن ومذاهبه فى النثر العربى : ص ٣٥٥

(٢١) د. محمد كامل حسين - راحة العقل .

(٢٢) د. محمد كامل حسين - راحة العقل .

والمنطق وغيرها من علوم الحكمة (٢٣) كما أن لابن الهيثم جولات في ميدان الفلسفة وضع فيها مؤلفات عديدة لم تتناولها أيدي الباحثين ولكن ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء يورد بعض آراء ابن الهيثم الفلسفية بصورة عامة فهو يدخل شئون الدنيا والدين في الفلسفة ويجعل علم الحق والعدل نتيجة لها وهو يخالف بذلك رأى من سبقوه من الفلاسفة الاسلاميين ومن أتوا بعده والذين يجعلون علم الحق وعلم العدل شركة بين الفلسفة والدين على نحو يختلف توصيله باختلاف الفلاسفة ويقول ابن الهيثم في هذا الشأن « اننى لم أزل منذ عهد العباس مرويا في اعتقادات هذا للناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككا في جميعه موقنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه هو من جهة السلوك اليه فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق فحضت لذلك دروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الدين فلم أحط من شيء منها بطائل ولا عرفت منها للحق منهجا ولا الى الرأى مسلكا جديدا فرأيت انى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية فلم أجد ذلك الا فيما قرره أرسططاليس فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى في طلب علوم الفلسفة وهى ثلاث علوم - الرياضة والطبيعة والالهيات .

ولقد كان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة بغض النظر عن المال والجاه وكان جل اهتمامه العلم والموقف على الحقيقة ولم يزل يلخص ويؤلف ويشرح في حركة دائبة مستمرة على طول سنى عمره ويفند أسماء ما ألف معتكفا في قبة على باب الجامع الأزهر منكبا على عمله وكان الميشر فائق وهو أمير من أمراء مصر مولعا بالعلوم الفلسفية مقتنيا لكثير من كتب الفاطميين متجرا فيها وقد استفاد ابن الهيثم من عمله في الهيئة والرياضة ، ونورد فيما هو آت بعض فلاسفة العصر الفاطمى .

أولا - اخوان الصفا :

جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة أخذوا كثيرا من مبادئ الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيشاغورية الحديثة ، لجأوا الى تأويل القرآن تأويلا مجازيا (٢٤) وهم من أشهر فلاسفة العصر الفاطمى ذات نزعة شيعية متطرفة حتى قبل أنهم اسماعيلية (٢٥) ويقول عنهم الأستاذ بروان (٢٦) أن

(٢٣) على حسن الخربطلى : العزيز بالله الفاطمى : ص ١٢٠

(٢٤) ديبور : تاريخ الفلسفة الاسلامية - ترجمة د. أبو زيد : ص ١٩٥

(٢٥) يرى البعض أن اخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الاسماعيلية

وأنهم اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم العلمى ولهم فرع ببغداد .

(٢٦) BROWN : Lit Hist of persia. Vol. I, P. 292.

أخوان الصفا موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة - حلوا ردحا من الزمن محل العنصر التركي وأصبح لهم النفوذ الفعلى التام ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى - (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) ولقد استطاعت هذه الطائفة اتمام ما بدأه المعتزلة وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف وتعتبر وسائل اخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرق وتدل فى الوقت نفسه على مؤلفيها نالوا حظا موفورا من الرقى العقلى وتتألف دائرة المعارف من احدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ولها من وراء هذا الغرض سياسية .

وتبدأ رسائل اخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف ثم تنتقل الى المنطق والطبيعيات فتترد كل شىء الى النفس وما لها من قوى وتنتهى أخيرا الى الاضطراب من معرفة الله على نمط صوفى (٢٧) ومجمل القول فى آرائهم أنها تذهب جماعة مضطهدة تجدد النزاعات السياسية من جميع أجزائه وترى من خلال بعض معاناة أصحاب هذه الرسائل من الآلام وما بذلوا كفاح وأنهم ظلموهم وأسلافهم فحلوا بالأهل وتواصلوا بالصبر وكانت هذه الفلسفة سلوى لهم وتطهيرا لأنفسهم واتخذوا فلسفة الاخلاص حتى الموت فى سبيل اصلاح الاخوان هى جهاد صحيح وهذه فلسفتهم ودينهم (٢٨) ورأوا الحج والطواف حول البيت مثل ضربة الله للناس للطواف حول هذه الأرض (٢٩) . ورأوا أن مساعدة الأخ لآخيه فى الحياة بجل ما يتسع من جهد وقدرة وعلى كل ذى مال أن يجل للفقير حظا من ماله وعلى ذى العلم أن يعلم أخاه الجاهل وأن كان العلم فى رسائل الاخوان حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا (٣٠) ومن هنا نرى أن هدف مؤلف الرسائل هو محاربة التوفيق بين الدين والعلم ولكنهم فشلوا فى ارضاء أهل الدين وأهل العلم - فقد عاب عليهم المتكلمون والفقهاء والسنيون طريقة التأويل ، كما عاب عليهم مبادئهم الفلسفية والمتأثرون بفلسفة أرسطو بوجه خاص . وعلى الرغم من هذا كله استقرت الفلسفة اليونانية فى الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتابتهم طوائف الاسماعيلية كالدرزية والمشهورين بالحشيشية فى فارس والشام . كما

(٢٧) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٥

(٢٨) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٦

(٢٩) رسائل اخوان الصفا : ج ٢ ص ١١٩

(٣٠) ديبور - تاريخ الفلسفة الاسلامية - ترجمة أبو زيد : ص ٩٨ ،

أفاد آخرون في تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل اخوان الصفا (٣١) وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من مؤلفي هذه الرسائل .

أبو سليمان محمد بن نصر البستى - ويسمى أيضا القدسي (المقدس) - أبو الحسن على بن هارون الزنجارى - أبو أحمد النهرجورى (المهرجاني) الصوفى وزيد بن رفاعه .

ويظهر من أسماء الثلاثة الأوائل أنهم من أصل فارسى وكان من بينهم ابن سينا الطبيب الفيلسوف المشهور الذى انتهت بموته سنة ٤٢٨ هـ .

كما يقول : Dietrici * (٣٢) حركة الفلسفة فى المشرق (٣٣)

ثانيا - أبو حاتم الرازى :

تمخضت الدعوة الفاطمية فى المشرق فى عهد عبد الله المهدي عن علماء دعاة أصحاب شأن كبير فى عالم الدعوة والأدب والفلسفة والتأليف ، وقد أخذوا على عاتقهم الثقافي الدفاع عن الدعوة بكل الوسائل بالقلم واللسان وعلى جذب الأمراء والعامة بهذا السلاح العلمى الخطير ومن هؤلاء الدعاة أبو حاتم الرازى الذى أطلق عليه الاسماعيلية :

أبا حاتم عبد الرحمن الرازى الذى كان داعيا اسماعيليا فى بلاد الرى ممثلا لنشاط الدعوة الفاطمية فى عهد امامة عبيد الله وخلافته متأثرا بمدارس الدعوة الذى أسسها عبد الله المهدي فى شمال أفريقيا واستغل رواج هذه الدعوة فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله ميمون القداح فاعتق كثير من أهالى هذه البلاد المذهب الاسماعيلي (٣٤) .

وكان أبو حاتم من كبار دعاة الاسماعيلية اشتهر بدعوته الى المذهب الفاطمى وكان له دورا فعلا عظيما فى الشؤون السياسية فى طبرستان والديلم وفى أصفهان والرى خاصة ولقد استجاب لدعوته كثير من كبار الدولة مثل

(٣١) ديبور - تاريخ الفلسفة الاسلامية : ص ٩٨ ، ٩٩
(٣٢) نشر رسائل اخوان الصفا وترجمها الى الالمانية برسنتى
١٨٥٨ - ١٨٨٦ ونشرت أيضا فى ثلاثة أجزاء بونى ١٣٠٥ هـ تصنيف أحمد
بن عبد الله .

Brown lit — Hist of persia vol. I.P. 273.

(٣٣)

(٣٤) نظام الملك - سفر نامه : ج ٢ ص ٢٧٢

أسفار بن شوروية ومرادويج بن زيار (٣٥) ، وكان له الأثر الفعال في اتصال مرادويج بعبيد الله ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشاركة سفراء عبد الله المهدي ذا أمراء المشرق وعامته (٣٦) .

ولقد رمى بعض السننيين أبا حاتم الرازي بتهم جمه فمنهم من اتهمه بالباطنية والزندقة وآخرون اتهموه بالدهرية (٣٧) الذين يقولون بأن لا نهاية للعالم وهي نفس الاتهامات يرمى السننيون جميع الدعاة الاسماعيلية تقريبا وعلى كل حال فان ذلك كله لا يقلل من شأن أبي حاتم فقد كان علما من أعلام الفقه العلمية الاسلامية في فارس في القرن الرابع الهجري ولقد استغل هذه النهضة ذاتها في الاشادة بامامة عبيد الله المهدي وتقديمه ، ولقد كانت له نظريات جمة في مبدأ الستر والظهور حتى قالوا عنه أنه أول من وجه هذين المبدأين في الاسلام توجيهها جديدا .

وعلى الرغم من أن اخوان الصفا كثيرا ما أوردوا في رسائلهم لفظي الكشف والستار (الستر) لم يقصدوا بهما - كما قال الدكتور حسين المهداني ما كان يقصد أبو حاتم - كما فعل الفلاسفة الاغريق بذكرهم معاني الكشف والستر بخلاف ما قصده الاسماعيلية (٣٨) الذين ذهبوا الى الستر الاسماعيلي هو الدور الذي يعمل فيه الامام مختفيا في دار هجرته والذي يندشط فيه دعائه في نشر الدعوة وأما دور الظهور أو الكشف الامامي فهو الدور الذي تشرق فيه شمس الامامية على الكون فيظهر الامام المستور كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهدي .

(٣٥) قدم الديلم وكانوا جميعا يميلون الى الشيعة من قواده على بن بويه رأس البويهيين يقول السيوطي تاريخ الخلفاء ٣٥٩ وكان يريد قصد بغداد وأنه مسالم لصالح المجوس وكان يقول أنا أرد دولة العجم وأمحو دولة العجم كما كان على صلة بعبيد الله الفاطمي فهدهاه وعرض عليه مساعدته حيث بعث بالرسول يحملون المال الكثير للمهدي في شمال أفريقيا وأعلن رغبته في الدخول في طاعته ومات سنة ٣٢٢ بعد أن فتح الري وأصفهان وطرده سيده أسفار .

(٣٦) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٧

ولقد رمى بعض السننيين أبا حاتم الرازي بتهم جمة فمنهم من اتهمه

(٣٧) البغدادي : الفرق بين الفرق ٢٦٧ - ابن النديم - الفهرست

٢٦٦ نظام الملك سفرنامه : ج ٢ ص ٢٤٧

(٣٨) Ivanow, A Gurde to Ismaili literature P. 32—33.

أضواء خاطفة على مؤلفات الرازي :

ومن أهم مؤلفات أبي الحاتم الرازي كتاب الزينة وهو مكون من ١٢٠٠ صفحة تناول فيه كثيرا من الأمور الفقهية والفلسفية وعلوم ما وراء الطبيعة وغيرها من الموضوعات الأخرى كالفرق الدينية وقيم المعلومات الجغرافية ، وقد أهداه الى الخليفة القائم الفاطمي ولقد قال الاسماعيلية أن ذلك الكتاب لا يعتبر من كتبهم السرية (٣٩) بل أنه يبحث في اللغة وحدها وكتاب « علوم النبوة » وهم من كتب فلسفة المذهب الاسماعيلي التامة وهو يحتوى على نظريات الاسماعيليين في الله تعالى والرسول وفي النفس والهيولا والزمان والمكان وغيرها ، في هذا الكتاب يرد الرازي على أحد الزنادقة الملاحدة .

ولا يقل كتاب الاصلاح في أهميته عن هذه الكتب وقد ذكره حميد الدين الكرمانى داعى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس ويتكون من خمسمائة صفحة وترجع أهميته الى ما جاء به من تأويل الآيات القرآنية وما أورده المؤلف عن الأنبياء (٤٠) .

ويذكر ابن النديم (٤١) كتاب الجامع وهو غير موجود الآن كما أنه غير معروف للبهرة الاسماعيلية .

من هذا نجد أن أبا حاتم الرازي له الفضل في الإشادة بعبيد الله المهدي ودولته وفي النهضة بالمذهب الاسماعيلي في شرق الدولة الاسلامية فضلا عما أسهم به في نشر الثقافة الاسلامية عامة كالفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما غير لك ولقد حاول أن يشرح نظريات الاسماعيلية ومبادئهم مما عرضه لاضطهاد السنين عامة والديالمة على وجه الخصوص وقد دعاه ذلك الى الاختفاء في آخر حياته ومات سنة ٣٣٢هـ بعد تولية الخليفة الفاطمي القائم بقليل (٤٢) .

ثالثا - النسفى :

ومن هؤلاء الدعاة أبو زيد عبد الله النسفى البرزغى الذى قتل سنة ٣٣١هـ في غضون المحنة الكبرى التى ألت باسمايلية المشرق وقد تتلمذ على الداعى الأمير الحسين بن على داعى خراسان والذى استجاب للداعى

(٣٩) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٨
Ivanow, A Gurde to Ismaili literature P. 32—33. (٤٠)

(٤١) ابن النديم : الفهرست - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٩

(٤٢) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٩

غياث وكان من أعظم تلاميذه علما ودراية وقد سار النسفى على درب أستاذه الحسين فى التقرب الى الأمراء وكبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى ولم يلى جهدا فى أداء مهمته كاملة حتى استطاع أن يجعل كثيرا من أهالى خراسان ينجذبون الى الاسماعيليه - ولم يرضى بما أحرز من نجاح فى هذا السبيل بل عبر نهر جيحون متجها الى بخارى حيث أضاف الى نجاحه نجاحا آخر هائلا .

ويرجع الفضل فى معاونة النسفى ببخارى الى هؤلاء الأمراء وبفضلهم أيضا شق النسفى طريقه الى قلب نصر بن أحمد السدائى الذى رحب بمبادئه وطلب رؤيته . كما تحول كثير من رجالها الى المذهب الاسماعيلى ولقد كانت فرصة سانحة بل فريدة تمكن بها النسفى من جذب نصر بن أحمد ورجال بلاطه اليه وكان نصر من أكبر معارضى المذهب الاسماعيلى فقبض على أستاذ النسفى وسجنه حتى مات ، وقد استغل النسفى هذا وأشاد بزعامه - العبد لله المهدي وطلب دية أستاذه وهقدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها للخليفة الفاطمى ، ولاقى ذلك ترحيبا من الأمير السامانى على دفع الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الاسماعيلى أولا ثم لعبد الله المهدي ثانيا (٤٣) .

ان علاقة النسفى بالبيت السامانى كونت فصلا ممتعا فى تاريخ الدعوة الاسلاميه ببلاد المشرق فى عهد عبيد الله الفاطمى وأصبح للداعى العالم مكانة خاصة مرموقة فى دولة نصر بن أحمد السامانى ، ولقد استغل النسفى هذه الفرصة السانحة والمنزلة الخاصة له وبذل جهودا مكثفة فى جذب الناس الى المذهب الاسماعيلى فى السر والعلن . فأثار ذلك عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنين ودعا بعض القواد والعلماء للكيد له ولأنصار المذهب الاسماعيلى .

ومن هنا يتبين الى أى مدى تغلغل المذهب الاسماعيلى فى خراسان ويلاذ ما وراء النهر ونرى مشهدا من مشاهد إخلاص الدعاة لذهبهم ولخليفتهم الفاطمى ، كما نستطيع أن نتبين ما كان يعانى به الدعاة من عنث واضطهاد (٤٤) .

ويرى ابن النديم (٤٥) أن نصر بن أحمد السامانى ندم فى آخر حياته على اندفاعه وراء النسفى ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء فنظروا

(٤٣) طه أحمد شرف - تاريخ الاسماعيليه السياسى - مخطوط ج ١ ورقة ٢٤٦ : ٢٤٨

(٤٤) د حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٠

(٤٥) ابن النديم - الفهرس : ٢٢٦

تلقا أنحموه الحجة قتله وقتل معه كثير من رؤساء الدعاة وأتباعهم من قواد نصر الدين الذين دخلوا في المذهب الاسماعيلي .

ويرى نظام الملك أن السنيين من قواد نصر الدين دبوا مؤامرة على العرش الساماني لانضمام صحبه الى المذهب الاسماعيلي وقد استقر الرأي على عزل نصر وتنصيب كبير القواد على العرش وعملوا على اقامة حفل كبير يعلنون فيه بدء ثورتهم الا أن أحد المجتمعين أفشى سر المؤامرة لنصر بن أحمد وأبناه نوح اللذين تحايلا على كبير القواد وقتلاه ثم خلع نصر بن أحمد نفسه وولى بعده ابنه الذي قتل النسفي وطارد الاسماعيلية .

ولقد أطلق الاسماعيلية على هذه النكبة الكبرى « اسم المحنة العظمى » ولا ريب فقد كان لهذه النكبة آثارها في وقف انتشار الدعوة الاسماعيلية فيما وراء النهر منذ ذلك الحين أى منذ ٣٣١ هـ الى أن رفع رايتها بعد قرن ونصف تقريبا ناصر خسرو (٤٦) ولقد سار على خطاه الحسن الصباح سنة ٥١١ هـ صاحب الدعوة النزارية في خراسان وفارس والشام .

وهكذا قام النسفي بدور بارز خطير في الناحية السباسبية بتأليف جبهة متينة قوية موالية لعبد الله المهدي فضلا عن دوره الخطير أيضا في الناحية الذهبية ونشر المذهب الاسماعيلي في خراسان وما وراء النهر .

(٤٦) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة في عهد المستنصر الفاطمي الذي عينه نائبا له (حجة) في خراسان وبأدخسان فكان جماعة يعرفون بالناصرية وهم يخضعون اليوم لأغا خان .
(م ٨ - صور حضاربه)

نشاطه العملي

أما من الناحية العلمية : فلقد برز النسفي وفان كثيرا من الدعاة العلماء وذاعت شهرته في عالم الأدب وفلسفة المذهب الاسماعيلي وله مؤلفات كثيرة من أشهرها كتاب « المحصول » ويظهر أنه من الكتب التي تعرضت لشرح أصول المذهب الاسماعيلي وقد جاء فيه على ما ذكر صاحب الفرق بين الفرق (٤٧) أن المبدع الأول أبدع النفس ثم أن الأول والثاني مدبر العالم بتدبير الكواكب السبعة والطوائع الأربع ، ويرى البغدادي أن هذا التحقيق معنى قول المجوس أن البازدان خلق أهرمن وأذنه مع أهرمن مدبران للعالم غير أن البازدان فاعل الخيران وأهرمن فاعل الشرور ولقد كان النسفي في هذا الكتاب يرمى الى التوفيق بين أبي حاتم الرازي وزميله أبي يعقوب السجستاني ولكن يد الدهر لعبت بهذا الكتاب ولا نعرف عنه شيئا الا عن طريق الكوماني داعي الحاكم في كتابه الرياض .

وليس ذلك كله ما بذله النسفي في التأليف فان له أيضا مؤلفات أخرى ككتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية » (٤٨) . وكتاب « كون العالم » وهو في علم الفلك ووصف العوالم « الكوزومجراف » . لكنه مؤسس المبادئ الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة ومن الغريب أن ذلك الداعي العالم الفيلسوف غير معروف لاسماعيلية اليوم .

رابعا السجستاني :

ولقد كان من أبرز علماء المذهب الاسماعيلي وأكبر دعاة أبو يعقوب اسحق بن أحمد السجستاني ويلقب دندان . ولقد كان من كبار الدعاة والمساعد الأيمن للداعي النسفي ولقد كان الجدل والمناظرة في مسألة النبوة وقتئذ أمرا يشغل أذهان المفكرين وموضوعا استحوذ على فكر الفلاسفة وعقول أحرار الرأي في هذا الزمان مما دعى الدعاة الاسماعيلية في عصر عبيد الله المهدي الى نشر مبادئهم تحت يافطة عريضة اسمها حرية الرأي ولقد عاصر أبو يعقوب السجستاني هذه الحقبة من الزمان التي اتسمت بطابع النهضة والمناظرة العلمية كما عاصر الأستاذ الرازي الداعي الأول وشاهد مناظراته للطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي في كتابه أعلام النبوة فكان لأبي يعقوب باعا في هذه المناظرة وأشهر سلاح الفلسفة في وجه نقاد.

(٤٧) البغدادي : الفرق بين الفرق : ص ٢٧٨

(٤٨) ابن النديم - الفهرست : ٢٦٨

المذهب الاسماعيلي فكان من أعلام الدعاة الاسماعيلية وأحد مفكرها الذين قاموا بوافر القسط في النهوض بهذه الفلسفة الاسماعيلية (٤٩) .

نظرة عامة عن مصنفات السجستاني :

كان لمؤلفات أبي يعقوب الكثيرة البارزة في نهضة الفكر الاسلامي وعلى وجه الخصوص في نهضة فلسفة المذهب الاسماعيلي .

ولقد تناول البغدادي (٥٠) بالذكر بعض هذه المؤلفات فقال وصنف له أبو يعقوب السجستاني كتاب « أساس الدعوة » وكتاب الشرائع وكتاب كشف الأسرار » كما ذكر ايفانوا ما يزيد عن عشرين مؤلفا للسجستاني يتمتع بأكثرهم البهرة في أيامنا هذه وهم - اسماعيلية اليوم - ويصعب علينا تخمين هذه المؤلفات بالبحث ونكتفي بالإشارة الى أهمها وأعظمها أنبرا (٥١) .

١ - كتاب اثبات النبوة وقد قسمه الى مقالات سبع : وكل مقالة هي بمثابة باب ، وهي مقسمة الى فصول عددها اثني عشر ولقد تناول السجستاني في هذا الكتاب موضوعات عدة منها اثبات النبوة من كافة نواحيها من الناحية الطبيعية والروحية وغيرها من نواحي النبوة وتعرض بالذكر للأمور التي اتفق عليها الرسل والتي اختلفوا فيها ومن أهم موضوعات هذا الكتاب التي تناولها بالعرض والتفصيل وهي دور الرسل ودلائل النبوة لمحمد صلوات الله عليه كما تناول موضوعا هاما أسماء عجائب القرآن والشرعية (٥٢) .

٢ - كتاب الينابيع ولقد قسمه السجستاني الى أربعين ينبوعا تعرض فيه لموضوعات شتى أهمها : ماهية المبدع وعالم العقل والنفس والزمان والمكان والهيولا وسبب الخلق وبدء الخليقة والملائكة وعدم قابلية العقل للفناء ، ومعاني الجنة والنار ومعنى صلب عيسى وهويوة القائم والوحدة والبحث والثواب والعذاب والفرق بين تأييد الله والخلق (٥٣) وهم بين يدي البهرة اليوم .

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature P. 35 (٤٩)

Hamadani : Some unknown Ismaili Authors (J.A.S., 1933 P. 367).

(٥٠) البغدادي - الفرق بين الفرق : ٢٦٧

(٥١) د. حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٢

I Vanow. A Guide to Ismaili literature P. 34, 36 (٥٢)

(٥٣) د. حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٢٧٢ نقلا عن :

I Vanow. Ibid P. 35

ويرى الدكتور الهمداني أن الدعاة ترسموا في مؤلفاتهم خطى أبي يعقوب السجستاني في تأليف كتاب الينابيع وسلخوا مسلكه واذا ازاننا بين كتاب زهر المعاني والذى صاحبه ادريس عماد الدين عن الدعوة الاسماعيلية وبين كتاب الينابيع لوجدنا أن الداعي ادريس انتهج نهج السجستاني من قبل وسار على دربه .

٣ - كتاب الموازين وينقسم الى تسعة عشرة ميزانا وكل ميزان يتناول أمرا يتصل اتصالا وثيقا بالمذهب الاسماعيلي ففي احدى هذه الموازين « معرفة الحقيقة » وفي أخرى وجوب معرفة (المبدع) وفي الثالثة (العقل) ومعرفة أسمائه كما قصر أحد الموازين علم الفروع الثلاثة المتفرعة عن الأصليين(٥٤) (العقل والنفس) .

ومن أعظم هذه الموازين أهمية ما وقفه على النطقاء والأسس والأئمة والحجيج والدعاة وما الى ذلك من الموضوعات التي تفيد الباحث في تاريخ التطور العقلي للمذهب الاسماعيلي(٥٥) .

٤ - كتاب النصر : وهو تعليق على كتاب المحصول الذي ألفه النسفي وان كان بعض الاسماعيليين ينسبونه الى الكرمانى - دأى الدعاة الفاطميين في فارس في عهد الحاكم بأمر الله وأغلب الظن أن هذا الكتاب مفقود وأن الكرمانى اطلع عليه وأشار اليه في كتابه وأبو يعقوب مفكر يتصف بالعمق ألف ما يزيد عن ٢٠ كتابا لغتها رصينة ووجزة عميقة .

هؤلاء هم مشاهير هذه الدعوة ودعاة عبيد الله المهدي في بلاد المشرق الذين استطاعوا أن يرفعوا علم الدعوة عاليا وأن يجذبوا الأمراء الى عبد الله المهدي فضلا عن أنهم شاركوا في الحياة الثقافية مشاركة فعالة ويتبين للباحث أن الدعوة التي أسسها عبيد الله كان لها كبير الأثر في تغذية الدعوة الى الحيوية والمبادئ التي جذبت الناس اليهم كما كانت تمد هذه البلاد من وقت الى آخر بدعاة درسوا في مدارس الدعوة وتخرجوا على أيدي كبار أساتذتها(٥٦) ولقد أسهم فلاسفة هذا العصر في النهضة الاسلامية العقلية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

(٥٤) د. حسن ابراهيم وطه شرف : عبد الله المهدي : ص ٢٤٥

وما يليها .

Fazee : The Ismailian Law of Matia (J.B.AS, 1929 (٥٥)

P. 85

(٥٦) د. حسن ابراهيم وطه شرف : عبد الله المهدي : ص ٢٤٥

وما يليها .

خامسا - أبو حنيفة النعمان المغربي :

هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون من قبيلة تميم ولقد أطلق عليه الاسماعيلية سيدنا القاضي النعمان تمييزا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور كما يطلقون عليه أحيانا سيدنا الأوحّد وأحيانا أخرى القاضي الأجل كما يعرف أيضا بأبي حنيفة الشيعي (٥٧) .

عاصر أبو حنيفة النعمان الفاطميين في المغرب وعمل في خدمة عبد الله الفاطمي حوالي سنة ٣١٣هـ - ٩٢٠م وانتهى إلى المذهب الاسماعيلي وأخلص له بعد أن كان مالكي المذهب كسائر أفراد أسرته وفي أيام المهدي والقائم والمنصور عمل على جمع وحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الاسماعيلي ، كما تولى القضاء في أيام القائم بطرابلس وكذلك عمل بالقضاء أيام المنصور والعز ثم رحل إلى مصر وكان أحد أبنائه منصبا قاضيا وكانت رئاسة القضاء الفعلية في أسرة النعمان (٥٨) مع أن أبي الطاهر القاضي السني كان متوليا إحدى مناصب القضاء .

وكان النعمان مشرعا ودعامة ومن دعائم الدعوة الاسماعيلية كما يذكر ذلك عنه عماد الدين ادريس ونما عن أن كتاب العيون للداعي ادريس لم يأت عنه بذكر فانه من الراجح أن يكون قد وصل إلى رتبة الحجة (٥٩) .

وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى اشتغاله بالقضاء ويقول ابن خلكان عن تناضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان ابن محمد الداعي (٦٠) والحق أن أبا حنيفة النعمان كان رئيسا للقضاء كما كان داعيا وفد أناد الدعوة الاسماعيلية بكثرة مؤلفاته في الفقه الاسماعيلي وفي المناظرة والتأويل والسيرة والتاريخ والوعظ وغير ذلك ومن الثابت أنه رتب ألف بضعة وأربعين كتابا بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا وضاع الباقي .

Fazee : The Ismailian Law of Matia (J.B.AS, 1929 (٥٧)
P. 85.

(٥٨) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٤

(٥٩) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٤

(٦٠) ابن خلكان - وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٥٦

مصنفاته :

ومن أهم كتبه كتاب دعائم الاسلام واسمه الكامل « دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ويتناول الكلام عن فقه الاسماعيلية ويقع في مجلدين فخمين يشمل كل منهما على سبعمائة صفحة ولهذا الكتاب منزلة خاصة عند اسماعيلية اليوم في اليمن والهند ، ويقول الداعي ادريس في كتاب العيون « ان الخليفة المعتز هذا الذي حث النعمان على تأليف هذا الكتاب وكان قد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة ، متناولوا الكلام عن الأحاديث الموضوعة والاختلاف في الرواية فقال المعتز : هذا الحديث المشهور « اذا ظهرت البدع في أمة فليظهر العالم علمه والا فعليه لعنة الله » ونظر المعز لدين الله الى انفاضي النعمان بن محمد وقال « أنت المعنى في هذا الأوراق يا نعمان ثم أمر بتأليف دعائم الاسلام وأصل أصوله وفرع فروع وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦١) .

وكانت الدعائم من أهم المراجع في فقه الاسماعيلية وفيه يزيد النعمان قواعد الاسلام ويجعلها سبعة وهو العدد الذي يفضل الشيعيون عامة ويضيف الى القواعد الخمس المعروضة عند السنين الولاية أى حب أهل البيت والطهارة وقد استغل النعمان ميول المذهبية في تأليف هذا الكتاب .

وكان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب الدعائم في أحكامهم وشجعهم الخلفاء على ذلك ودليل ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ) في ذى القعدة من ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) أرسل الى هارون بن محمد داعية في بلاد اليمن رسالة نصها :

(ولتكن فتواك للمستفتين في الحلال والحرام من كتاب دعائم الاسلام دون سواء من الكتب المتنقلة (٦٢) .

ولقد نهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه مصنف الوزير منهج كتاب الدعائم كما أسهب في الدعاة المتأخرون في مدح هذا الكتاب فنجد

(٦١) د° حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٥ نقلا عن عماد الدين زنكي - ادريس - عيون الأخبار - المجلة الاسيوية الملكية ١٩٣٤ ص ٢٢

Hamadani, some unknown Ismaili Authors (3—R.A.S. 1933) P. 369.

(٦٢) أى الزائدة والدخيلة .

حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم فى فارس يشيد به فى كتابه « راحة العقل » حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث .

كما بقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (٦٣) « وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمععات على أن يبتدىء بقراءة سىء من فروع القرآن ويثنى من كتاب دعائم الاسلام » .

وعلى الرغم من ضياع أكثر مؤلفات النعمان الا أن ما تبقى من مؤلفاته يبعد ثروة ثمينة لأنه ضرب فى جميع الأنسطة العلمية (٦٤) ولا يزال أكثر ما بقى من هذه المؤلفات فى حوزة اسماعيلية اليوم .

وفىما يلى نظرة سريعة على بعض مؤلفاته فى مختلف الأنسطة العلمية .
ومن أهم كتبه « الايضاح » وكان مطولا جدا وفيل أنه سفل مامتبين وعشرين كراسة وكتاب البنبرج وكتاب مختصر الآثار وكتاب « الظهرة » ومن كتبه الفقهية كتاب مختصر « الايضاح » وكتاب كنفه الصلاة وكتاب « منهاج الفرائض » وغيرها (٦٥) .

ولقد لعبت يد الدهر ولم يعثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التى ألف فيها « الرسالة المصرية فى الرد على السافعى » و« رسالة ذات البيان فى الرد على ابن قتيبة » وكتاب فى الرد على أحمد بن سريح البغدادى « وكتاب اختلاف أصول المذاهب ولم ببق للنعمان من كتب التأويل سوى كتاب « أساس التأويل » وكتاب تأويل الدعائم ولم نعثر على اثر لكتابه « نهج السبيل الى معرفة علم التأويل » .

أما ما تركه من كتب العقائد فهى : كتاب « العقيدة المختارة وكتاب « الهمة فى اتباع الأئمة » ومن مؤلفاته فى العقائد التى ضاعت كتاب « الدعاء » وكتاب « الشروط » وكتاب « التعاقب والانتقاد » وكتاب « الحلى والشياب » .

وبالنسبة لمصنفاته فى الأخبار والسير فلدينا منها كتاب « شرح الأخبار » ولم نعثر على الأرجوزة التى تسمى « ذات السنن » والأرجوزة المسماة « ذات المحن » ويعد كتابى « افتتاح الدعوة الزاهرة » و « مناقب بن هاشم » من أشهر مؤلفاته فى التاريخ ولكن للأسف لم يعثر لهما على أثر .

(٦٣) مؤيد الدين الشيرازى : السيرة المؤيدة ص ٦٢

(٦٤) د. حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٦

(٦٥) Hamadani : some unknown Ismaili Authors (J.R.A.S ١٩٣٦

1933 P. 369).

ومن مؤلفاته في الوعظ كتاب المجالس والمسائرات وكتاب « معالم الهدى » و « الرسالة الى المرشد الداعي بمصر في تربية المؤمنين » ولكنها ضاعت ومن المؤلفات التي بنسب اليه تأويل الرؤيا وكتاب « منامات الأئمة » وكتاب « التقرير والتصنيف » وكتاب « مفاتيح النعمة » وأيضا كل هذه المؤلفات ضاعت كما ضاع ما ألفه في الحقائق مثل كتاب « حدود المعرفة » وكتاب في الامامة وكتاب « اثبات الحقائق » وكتاب « التوحيد والامامة » (٦٦) .

ومن الكتب التي لم تثبت صحة نسبتها الى النعمان كتاب « تفديم الأحكام » وكتاب « الراحة والتسلية » وكتاب « سيرة الأئمة » (٦٧) .

منهج النعمان من خلال مؤلفاته :

ومن سمات مؤلفات النعمان أنه لم يسرف في التأويل كما ذهب معظم دعاة الاسماعيلية خاصة دعاة فارس ولهذا يعتبر أنه خير من مثل المدرسة الاسماعيلية القديمة التي التزمت بعدم اثاره شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمي (٦٨) .

وبعرضنا لكتاب المجالس والمسائرات نجد أنه يقع في ثلاث مجلدات ويفقسم الى قسمين أولاهما ويقع في ٣٧٣ صفحة ثانيهما مشتمل على مجلدين ويشغلان ٦٧٢ صفحة ويعتبر هذا الكتاب خير ما ألفه في وصف حياة الفاطميين في الدور المغربي حيث تناول حياة الخلفاء الأربعة : المهدي والقائم والمنصور والمعز . ومن خلال هذا المصنف نستطيع معرفة تاريخ الفاطميين في الدور المغربي وحياة الخلفاء الخاصة ووصف كامل لقصورهم وكيف كانوا يقضون أوقات فراغهم ويعتبر وثيقة تاريخية هامة عن نظام الحكم المتبع في عهد المعز .

كما تعرض النعمان في هذا الكتاب لاستقصاء أحكام لأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما على بن أبي طالب كما تصدى للرد على خصوم المذهب الاسماعيلي .

ونستدل من هذا المؤلف على مدى براعة ونبوغ النعمان في القضاء والفقه كما يوضح مدى ما وصل اليه المعز لدين الله من عبقرية وغرارة معلومات على الرغم من صغر سنه (٦٩) .

(٦٦) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧

(٦٧) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧

(٦٨) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧

(٦٩) د. حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٨

ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » من أكثر المؤلفات المعاصرة - للمعز - أهمية فنجدده مثلاً يتعرض في اسهاب لعلاقة المعز بالأمويين في الإندلس وتناول أسباب العداء بينهما ومدى قوة كل منهما . كما كشف عن مخاوف عبد الرحمن الناصر الأموي من أساطيل المعز ومن الحملات البحرية التي شنّها عليه وخوفه على عرشه من أن يقع في أيدي الفاطميين . وتعتبر الرسائل المتبادلة بين عبد الرحمن الناصر الأموي والمعز وثيقة تاريخية لجهود الأمويين في أفريقية التي كانت تتأرجح بين الانزلاف والتمهيد في أسلوب اتبعى منطقي .

كما عرض النعمان لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية وكيف أن مسمى جزيرة « كريت » الذين كانوا تحت حكم العباسيين يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم وتدل الرسائل المتبادلة على مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ (٧٠) .

وكذلك صور كتاب « المجالس والمسايرات » موقف المعز من صاحبي سجلماسة وفاس . كاشفا الأسباب التي أثار غضب المعز على صاحب سجلماسة وذلك لتلقيه باللقاب الخليفة مثل لقب « أمير المؤمنين » هذا بالإضافة الى أنه يكشف كيف كان المعز يمتن نفسه وأتباعه لاختصاص بلاد المشرق وامتلاك الشام .

ويعتبر أنصار المذهب الاسماعيلي أن كتاب المجالس والمسايرات من أهم كتب الدعوة الاسماعيلية ومن أهم مراجعهم حيث أن مؤلفه استمد ما حقه من المعز الفاطمي هذا الى جانب أنه امتاز بأسلوب سهل رقيق منسجماً في ألفاظه ومعانيه حتى صار قطعة أدبية رائعة .

وخلاصة القول - فان هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الاسماعيلي والعقائد الاسماعيلية ولا يمكن لباحث في تاريخ الفاطميين في الدور المغربي عامة وفي عهد المعز خاصة الاستغناء عنه (٧١) .

ولقد قسم النعمان كتاب « المهمة وفضل الأئمة » الذي يتكون من جزئين ويشغل كل منهما ٤٦ صفحة فأما الجزء الأول فإنه يشمل ثمانية فصول بينما يشغل الجزء الثاني الى احد عشر فصلاً ومما هو جدير بالذكر أن هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٥ ترجع أهميته الى أنه من أقدم المراجع

(٧٠) د . حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٩

(٧١) د . حسن إبراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٠

التي تمثل الأدب الاسماعيلي في عصوره الأولى ومن أصدق المؤلفات الاسماعيلية التي قصد بها تدريب هذه الطائفة على التفانى في الاخلاص لمبادئها حيث يتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية وواجبات الاتباع نحو الدعاة والأئمة فنراه يعرض في الفصل الثالث من الجزء الثاني (٧٢) نهى اتباع الأئمة عن الحسد والبغى والحقن وسوء الظن بينما اختص الفصلين الرابع (٧٣) من نفس الجزء على ذكر الأمر لاتباع الأئمة بالحلم والعفو والنواضع لله تعالى (٧٤) ولهم « أى الأئمة » اطراح (ترك) الكبر والأنفة واعطاء الحق الذى يلزمهم أما الفصل السادس (٧٥) فقد اختص بما ينبغى لاتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد كما أثار هذا الكتاب الى فصل الأئمة الاسماعيلية كافة وحاجة العالم (٧٦) اليهم كما يجب على الاتباع وجوب الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها والجهاد معهم أى مع الأئمة جهاد في سبيل الله (٧٧) .

ولقد خصص النعمان الفصل السادس (٧٨) من الجزء الأول في شرح الاشراف المعالي عند الاسماعيليين حيث بنى استراعه المالى في هذا المصنف على أسس مستمدة من القرآن وهى أن المستجيب يودى وهو طائع مختار كما وضع في نفس الفصل ما يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات وتقرير ما يجب على الاتباع دفعه للامام وهو خمس أموالهم معتمدا في ذلك على بعض الأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة الى أن يقول « فاعملوا أيها المؤمنون - لما علمكم الله » أن ما غنمتم من شئ أى كسبته فانه لله خمسة تتقربون به اليه و « للرسول » تدفعونه الى امام عصركم ثم اليه الأمر فيه وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته وأيامهم وأبناء سبيلهم (٧٩) .

وهذا يفسر قوله تعالى : واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل « (٨٠) » .

-
- (٧٢) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٢ - ٥٥
 (٧٣) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦
 (٧٤) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٦ - ٥٧
 (٧٥) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨
 (٧٦) سمي الفصل من كتاب الهيئة في وجوب الأئمة : ج ٢ ص ٨ : ١٣
 (٧٧) القاضى النعمان - كتاب الهبة : ج ١ ص ٣٠ : ٣١
 (٧٨) القاضى النعمان - كتاب الهبة : ج ١ ص ٣٠ : ٣١
 (٧٩) القاضى النعمان : ص ٢٣
 (٨٠) القرآن الكريم - سورة الأنفال : ٣٨ : ٤١

ويؤكد النعمان في شرحه على ضرورة دفع الخمس لامام الزمان لأنه هو الذى حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته . ولم يكتف النعمان بوجود دفع الأتباع الخمس من أموالهم للأئمة بل قال : « فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما عنموه فى كل عصر الى امام ذلك الزمان من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمر عز وجل مع ذكاة أموالهم (٨١) » .

كما فسر النعمان أن الأئمة الاسماعيلية تتخذ من قرابتهم من الرسول بأحقيتهم بالوراثة من العباسيين لأنهم أهل بيته القربين سندا لمحاربينهم .

كما عقد النعمان عدة مصول أساد فيها بالأئمة ووجب على الأتباع أن يقدسوهم والتأديب فى طلب الحوائج منهم (٨٢) كما نهاهم عن انكار أفعال أئمتهم (٨٣) .

وبذلك يكون النعمان قد وضع ميثاق المذهب الفاطمى الذى يحتم على المؤمنين الاسماعيلية أن يسيروا على هداه ومن هنا فان المعز قد جنى كل الفائدة من رجال دعوته وعلى وجه الخصوص تلك المؤلفات التى ربط أصحابها الأشياء بإيمانهم الخليفة الفاطمى ومن أهم الكتب وندرها والتى ضربت بهم مثلا فى توطيد أواصر المحبة والوفاء وبين رئاسة الدعوة فى التصورية وفى القاهرة ، وبين الأتباع فى سائر أرجاء المعمورة كتاب الهمة .

ولقد اهتم النعمان بتنظيم العلاقة بين الدعاة ومستجبيهم من جهة وبتحديدها بينهم وبين الأئمة من جهة أخرى واختط لهم الخطوط العريضة التى يجب على الدعاة أن ينبعوها فى جذب الأتباع ودفعهم على التجل والتحل بالصفات الطيبة كال تقوى والورع والعفاف والمعاف حتى يكونوا قدوة للأتباع ويثمر تأثيرهم فى نفوسهم ولقد أوضح النعمان فى كتابه كيفية اختيار الدعاة لمستجبيهم والزمهم بأن يدرسوا حالة الأتباع النفسية والعقلية ، دراسة مستفيضة حتى تصل المعارف الى عقولهم ويستطيعون فهمها وتمثيلها (٨٤) .

كما نصح النعمان الدعاة أن يتقربوا الى أديائهم ومريديهم بهم وأن يجعلوا من أنفسهم أباء وأخوة ومعلمين وعلى الداعى أن يقرب اليه أصحاب

(٨١) القاضى النعمان - كتاب الهبة : ج ١ ص ٣٢

(٨٢) القاضى النعمان : ص ٧٨ - ٨٠

(٨٣) القاضى النعمان : ص ٨٠ - ٨٤

(٨٤) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٣ و د .

على حسن الغربطلى أبو عبد الله الشيعى : ص ٢٢

النوايا الطيبة والنفوس الطاهرة والسرائر الصافية دون اعتبار للجاء والمال .
فإن تكريم أصحاب الدين والتقوى وتفضيلهم عن سواهم من أقرب الأمور
إلى ارتباط الناس بالمذهب الاسماعيلي والدخول فيه (٨٥) كما أن ذلك يصبغ
الامام بصبغة الهيبة والوقار مع التحلي باللين وحسن الصمت وقلة الكلام
مستشهدا بقول جعفر الصادق « أطلبوا العلم وتزينوا معه بالوقار ، والحلم ،
وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتعلمونه ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب
باطلكم بحقهم ، من طلب العلم ليدافع به العلماء ويوعارى به الشعراء ، أو
ليصرف به وجه الناس اليه ويتكبر عليهم فليتبوأ مقعده من النار .

ان الرياسة لا تصلى الا لأهلها » (٨٦) .

كما حتم النعمان على الدعاة أن يكونوا قضاة عدل يتحلوا بالانزاهة
ويحكمون بالقسطاس المستقيم بين المستجيبين وأن يجعلوا صلاح أحوال
الأشعياء نصب أعينهم ولذا فإن المؤلف جعل الفصل العاشر من الجزء
الثاني (٨٧) قاصرا على ذكر ما ينبغي لمن استرعى أمر رعايا الأئمة باتباع
العدل بين من ولوا أمرهم من الأئمة .

ومن هنا يتبين للباحث بأن النعمان المطلع على كل أسرار هذه الدعوة
والذى كان قاضى قضاة الدولة للعلماء أن يسود الشرع الاسماعيلي ، ولا غزو
فانه قد كان الساعد الأيمن للمعز ولسانه الناطق وبهذا كله يحق له أن
يتربع على عرش الدعوة الاسماعيلية في المغرب ويورث أبناءه هذه الزعامة
في مصر بعد أن توفي في شهر جمادى الآخر سنة ٣٦٣ هـ وصلى عليه المعز
لدين الله الفاطمي .

سادسا - جعفر بن منصور اليماني :

اشتهر جعفر بن منصور (بن حوشب) (٩٠) بحب الفاطميين منذ
نعومة أظافره .

(٨٥) القاضي النعمان - كتاب الهبة : ج ٢ ص ٨٩

(٨٦) القاضي النعمان - كتاب الهبة : ج ٢ ص ٨٩ ، ٩٠

(٨٧) القاضي النعمان - كتاب الهبة : ج ٢ ص ٨٤ : ٨٨

(٨٨) د . علي حسن الخربطلي - أبو عبد الله الشيعي : ص ٢٦

(٨٩) د . طه شرف - تاريخ الاسماعيلية أساسى : مخطوط ج ١ ورقة

٢٨١ - ٢٨٢

(٩٠) اختلف المؤرخون في تفاصيل اسم ابن حوشب فابن الأثير (الكامل

ج ٧ ص ٣٠) وابن خلدون - العبر : ج ٣ ص ٣٧١ يذكر أن اسمه هو رستم

قال النعمان عنه أنه من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع درس القرآن الكريم والحديث والفقه واعتنق أول أمره تعاليم الاثنا عشرية أصحاب محمد بن الحسن بن علي ابن محمد بن علي بن مرسى بن جعفر الصادق ، وكان يعتقد أنه المهدي ، ثم أصبح من أكبر دعاة الاسماعيليين . فاهتم بنشر الدعوة الاسماعيلية خارج بلاد اليمن ، وأرسل دعاة الى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب (٩١) .

كما كان يدعو للامام محمد الحبيب (٩٢) .

واختلف مع أخيه الحسن بن منصور التائر على الخليفة (المهدي في آخر حياته ولقد غادر جعفر بلاد اليمن حنقا على أخيه فاصدا بلاد المغرب (سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٣ م) ، وأنه كان يرسله مؤنبا اياه على ما اقتصره ضد الفاطميين (٩٣) .

ولقد تمتع جعفر بمكانة عالية في الدولة الفاطمية بالمغرب وبمصر ، وكانت له منزلة عند القوائم والمنصور والمعز حتى اتخذ « باب ابواب » في مصر ، وهي درجة أعلى من رتبة قاضي القضاة .

ولقد كان لفراره من بلاد اليمن حبا في النهوض بالمذهب الاسماعيلي اثر كبير في تقدير الخلفاء الفاطميين له وحبه اياه وعطفهم عليه .

جعفر بن منصور من خلال مؤلفاته :

ولجعفر آثار علمية لدى البهرة الى يومنا هذا ، ومن أهم كتبه كتاب تأويل الزكاة « وهو موجود بمكتبة الجامعة بلندن ، وقد ألّفه على ما يبدو في عهد المعز لدين الله ، ولقد ذهب هذا الفقيه الى تأليه الأئمة مؤيدا نظرية الاسماعيلية التي تقول « من عرف امام زمانه عرب ربه » (٩٤) ويقول دى غويه في كتاب تأويل الزكاة « أن به كثيرا من مبادئ القرامطة الخارجة

بن الحسن بن حوشب بن دادان النجار . بينما يرى المقرئى أن الجد الأكبر هو زاذان ألفاظه لحنقا خاص ٤٠ ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) ان اسمه هو (أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زاذان الكوفي) . (٩١) د . علي حسن الخربوطلي - أبو عبد الله الشيعي : ص ١٨ : ١٩ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٣٣

(٩٢) المصدر السابق : ص ٢٢ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٤٧ - ٥٣

(٩٣) الحمادى اليماني - كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

(٩٤) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٥

على الدين (٩٥) ويذهب الأستاذ ماسينيو الى القول بأن جعفر ألف هذا الكتاب في سنة ٣٦٠هـ ويسميه تأويل الفرائض ويذهب الأستاذ ايفانو الى أن كتاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر المسمى الفرائض وحدود الدين (٩٦) .

ولجعفر بن منصور من الكتب أيضا كتاب « سرائر النطقاء » وكتاب « السواهد والبيان » المخطوط بدار الكتب المصرية بمكتبة تيمور باشا تحت رقم (١٨٤) عقائد ، وله من الكتب كتاب « الكشف » وهو كتاب قيم في التأويل أول فيه بعض آيات من القرآن في شيء كبير من الغلو .

من ذلك ما ذهب اليه في تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين - بأن التين هو الحسن والزيتون هو الحسين وطور سنين هو سيدنا محمد (صلعم) والبلد الأمين على بن أبي طالب الأمر الذي حداه أن يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم إذاعة أسراره (٩٧) .

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب الفترات والقرافات « ويسمى الجعفر الأسود » ويظهر أن كتاب « الجعفر » الذي ينسب الى جعفر الصادق . والذي يعتقد الاسماعيلية أن الذي وضع أصوله على بن أبي طالب يستقى علم التأويل والباطن في سلالته كما يظهر أن الجعفر الأسود من وضع أحد الدعاة المتأخرين لأنه يتناول حوادث وقعت في القرن الخامس الهجري ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء من أجدادهم ويتعرض لشرح تأثير الكواكب في الدعوة وأطوارها فهو اذا نوع من الملاحم التي أغرم بها الاسماعيلية .

ومهما يكن فإن جعفرا سلك في مؤلفاته مسلك التأويل ونادى بمبدأ استمرار الأديان والحلول أى حلول الأنبياء من شخص الى آخر (٩٨) .

(٩٥)

(٩٦) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٥ نقلا عن عجب نامه : ص ٣٣٢

(٩٧) وهذا التفسير باطل من أساسه ويدل على أن جعفر لم يطلع على تفسير من سبقوه من الأئمة وأن هذا التأويل يخرج بلجتمع الاسلامي عن الأصول الصحيحة لفهم الكتاب الكريم موجه نظري أن مطلع السورة هو قسم بما خلق الله من نبات حلوة ومره وقسم بالمكان .

(٩٨) المكان القدسي على أن الله عز وجل خلق الانسان في أحسن تقويم فهو مكرم كما ذكر عز وجل ولقد كرّمنا بني آدم .

ومن هنا نرى أن نشاط الداعي جعفر بن منصور كان خصبا في دراسة عقائد المذهب الاسماعيلى ، ويفص علينا الداعي اديس عماد الدين في كتابه عيون الأخبار ما يشعنا بسمو مركز جعفر في الدعوة الاسماعيلية . وذلك بأن أبا حنيفة النعماني قاضى قضاة المعز لدين الله مرض وهو بمصر . فزاره كثير من علية القوم من بينهم جعفر باب أبواب المعز ، ولما نسفى أبو حنيفة سأل المعز عن زاره فذكر أسماءهم جميعا سوى جعفر ابن المنصور . فأخذ المعز يمدح جعفرا ثم قدم لأبى حنيفة رسالة وطلب منه قرائتها وسأله عن مؤلفها وفد نالت هذه الرسالة إعجاب قاضى القضاة فقال عنها أنها للخليفة المعز لدين الله فأجابه المعز بأنها من وضع مولاة الرئيس جعفر بن منصور .

وفي وصف المعز جعفر بالرئيس الوالى ما يشعر بعلو مكانته لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور وذهب دار جعفر الداعي وعبر له عن احترامه وتقديره وهكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان .

ومن هنا نتبين أن جعفرا أحد اثنين من أشهر الدعاة الذين أنجبهم مدارس الدعوة في بلاد المغرب خاصة وقد مات بعد رحيله الى مصر مع المعز (٩٩) .

وهكذا سمت الدعوة الاسماعيلية بأدائها في عهد هذا الخليفة وبلغت أوجها على يد الامام المعز نفسه وقاضى قضاة النعمان وباب أبوابه جعفر بن منصور ، وكان لهذه المدرسة النى تقدسها هؤلاء الثلاثة اثارها فيما بعد واستطاع أحد تلاميذها وهو حميد الدين الكرمانى أن يرفع منارة الدعوة في عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر فكان المؤيد النيرازى والحسن الصباح آخر من اثار هذه المدرسة (١٠٠) .

سابعا - حميد الدين الكرمانى :

هو أحمد حميد الدين بن عبد الله محمد الكرمانى فيلسوف اسماعيلي كبير وشخصية علمية مرموقة غامضة عاش في عصر علمى زاهر ،

(٩٩) د . حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٦

(١٠٠) د . حسن ابراهيم وطه شرف - المعز لدين الله : ص ٢٥٨

وما يليها .

وداع جليل خط في صفحات الفكر أقوم البحوث وأعمق الدراسات وترك لمن بعده كنزا ثميناً وتراثاً خالداً وعدداً من المؤلفات القيمة (١٠١) .

واشتهر الكرمانى بانتاجه الجم وتفكيره العميق وكان داعياً للحاكم يأمر الله فكتب عدة رسائل ناقش فيها مذهب الدروز وهم الاخوان الذين تفرعوا من الاسماعيليه (١٠٢) .

ويلقبه دعاة اليمن وعلماء الاسماعيلية بكلمة « سيدنا » تعظيماً له وتكريماً لمكانته العالية عندهم وقدره ويعتبره فلاسفة العالم الاسلامى أعظم عالم أنجبته المدرسة الفكرية الاسماعيلية في العصر الفاطمى ، أما كتابه راحة العقل فهو من الكتب النادرة القيمة التى قلما يوجد بين كتب الفلاسفة المعاصرين ما يعادله عمقا وقوة ومتانة ، وهو رغما عن ذلك مطلبه قليل ورواجه بطلء محدود ، وهو مقصور على الخواص من العلماء والأفذاذ والمتبحرين من الفلاسفة .

ولقد قال الداعى الاسماعيلى المؤرخ اليمنى الكبير ادريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » فقال : « هو أساس الدعوة التى عليه عمادها وبه عمل واستقام منارها وبه استبانّت المشكلات وانفجرت المضلات (١٠٣) » .

ووصفه الداعى الاسماعيلى السورى نور الدين أحمد فى كتابه فصول وأخبار فقال : « لو أن الدعوة الاسماعيلية لم تنجب غير الكرمانى لمكافها فخرًا ومجدًا وإلّا كان ذلك كافيا » . ولقد ظهرت آثاره وعظمة شأنه فى عهد الخليفة بأمر الله الفاطمى وكان لقبه « حجة العرافين » .

أى أنه كان مسئولاً عن شئون الدعوة الثقافية فى فارس والعراق وفى القاهرة كان مركزه كمقام « حجة جزيرة » فهو من أحد الحجج الاثنا عشر المكلفين بإدارة شئون الدعوة الامامية الاذاعية الفكرية فى العالم ثم أنه استخدم بعد ذلك كرئيس لدار الحكمة بالقاهرة وهى المؤسسة الثقافية التى نستطيع أن نقول أنها أول جامعة أنشئت فى العالم .

(١٠١) محمد حسن الأعظمى - عبقرية الفاطميين : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٢ - ٢٢٣

(١٠٢) هنرى كوربان - ترجمة نصر مودة وآخرين : تاريخ الفلسفة الاسلامية : ص ١٣٥ - ١٣٦

(١٠٣) محمد حسن الأعظمى - عبقرية الفاطميين : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٢ - ٢٢٣

وفد على القاهرة ٤٠٨ هـ ببناء علي دعوة الصديق المأهون (اختكين الضيف) داعى دعاة الدولة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله عندما حمى وطيس الممارك الدينية وقامت الدعوات الجديدة وراجت الشائعات والبدع التي كانت تهدف الى المبالغة والغلو والقول بالوهمية الحاكم بأمر الله فألقى الدروس والمحاضرات في دار الحكمة وقاوم الدعوات الجديدة التي تتنافس ومبادئ الفاطميين الامامية .

وعلى الرغم من أن الكرمانى كان فيلسوفا من فلاسفة العالم الذين صالوا وجالوا على مسرح الفلسفة الكونية وبذل جهودا كبيرة لايجاد مدرسة فلسفية ترتكز على أسس عقلية جديدة . فانه كان من الفلاسفة المعمرين في عالمنا الفلسفى .

أضواء على مؤلفات الكرمانى :

وفي الحقيقة ان دراسة انتاجه ومؤلفاته من الأهمية بمكان وأنها تعطى صورة واضحة عن أثر الفلسفة في تاريخ الفكر بالنسبة للمهتمين بالدراسات الشرقية الاسلامية (١٠٤) .

ولقد تمكن الكرمانى من أن يضم الى المذهب الاسماعيلى والى الموصل المقلد بن يوسف حتى خطب على منبر الموصل للامام العزيز الخليفة الفاطمى سنة ٣٨٢ هـ .

ولقد ورد في المؤلفات الاسماعيلية أن الكرمانى استدعى للقاهرة سنة ٤٠٨ هـ فكان يحضر مجلس داعى الدعوة حيث يلقي أبناء الدعوة عليه المسائل التي جعلوها الى الامتحان ذريعة والى بسط الشغب شريعة وكان يجيب عليها . وكثير من رسائله هي ردود على من رأهم حادوا عن الدعوة الاسماعيلية أو ابتدعوا فيها (١٠٥) .

ومن رسائله « الرسالة الكافية » في الرد على الشريف الهارونى الحسنى

(١٠٤) محمد حسن الأعظمى - عبقرية الفاطميين - أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٤ - ٢٢٨
(١٠٥) د عبد الرحمن بدوى - مذاهب الاسلاميين : ج ٢ ص ١٩٧ -

والرسالة الواعظة في الرد على الفرغاني بن الأحمز أحد دعاة الدرزية ورسالة
مباسم البشارات بالامام الحاكم ورسالة الصوم وغيرها (١٠٦) .

والكرماني في كتبه يتحدث عن الفلسفة الطبيعية والالهية كما في
« راحة العقل » الذي يعتبر من أقوم كتب الفلسفة في العصر الفاطمي فهو في
هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية ذات الصبغة الإسلامية
على المذهب الفاطمي وحديث الكرماني على ابداع العقل وصفاته وخصائصه
وانعائات النفس الكلية وصفاتها وعن العالم الروماني وعالم الكون والفساد
يحل على أن الكرماني من أكبر الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية ولا غرو
فان لهذا الداعي أثره في تاريخ المذهب الاسماعيلي الى اليوم فكل من جاء
بعده أخذ عنه واقتبس من رسائله وكتبه ومن أشهر كتبه كتاب « راحة
العقل » وله رسائل في آداب الاسماعيلية وكتاب « المجالس البغدادية »
وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيها محاضراته في التأويل (١٠٧) .

ويعتبر الكرماني من أشهر الفلاسفة الفاطميين الذي تحدثوا في الالهيات
وفي هذا العصر فهو يقول في رسالته : مباسم البشارات بالامام الحاكم فانتنى
لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا وللسدة العلوية زائرا ورأيت السماء قد
أظلت بسحاب عميم والناس تحت ابتلاء عظيم (١٠٨) .

تلك اذا شخصية فريدة لم يجد للتاريخ مثيلا لها الا نادرا .

ثامنا - المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي :

هو داعي الدعوة والعالم الفيلسوف صاحب الدرجة العالية المرموقة الذي
بلغت على يديه علوم الدعوة درجة سامقة والذروة العالية ، هو فيلسوف
فلاسفة الدعوة الفاطمية المعروف بمناظراته مع أبي العلاء المعري ، وفد
الى مصر وأقام بها زهاء ثلاثين عاما وان لم يكن مصري المولد والنشأة فعاش
بينهم واستنمع الى جمهرة منهم (١٠٩) ولقد أخذ المصريون عنه علوم الدعوة
وأثر في حياتهم العقلية المصرية بمبادئه التي اعتنقها وينادى بها ، ولقد
أخذ عنه في مصر المسك بن مالك قاضى قضاة الصليحيين باليمن الذي نقل

(١٠٦) وزارة الأوقاف وتسثونه - الأزهر تاريخه وتطوره : ص ٨٧ - ٨٨

د محمد كامل حسين - في آداب مصر الفاطمية : ص ٨٧ ، ٨٨

(١٠٧) وزارة الأوقاف وتسثون الأزهر - الأزهر وتاريخه وتطوره :

ص ٣٣ - المجلة الأزهرية .

(١٠٨) د محمد كامل حسين - رسائل الكرماني - نسخة خطية .

(١٠٩) د محمد كامل حسين - في أدب مصر الفاطمية : ص ٥٩

عن مصر علوم الدعوة الى اليمين ، وأصبح اليمينيون يعلنون أستاذيته لهم في علوم الدعوة ، كما أنشئ في مصر قصائد ديوانه ، ولقد ولد هبة الله بن عمران موسى ابن داود السيرازي بسيراز في آخر القرن الرابع من الهجرة من أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمي ، ومن هنا فان هبة الله نشأ ليتربع في مكانته في الدعوة في هذا الاقليم ، وأخذ من نشأته الامام بكل ما يخص الدعوة وأسرارها ، ولقد كتب الى الحاكم بأمر الله أن يولى ابنه هبة الله أمر فارس من بعده .

وبالفعل أصبح هبة الله فارس بعد أبيه كما ملك نفوس أتباعه الذين انقادوا له انقيادا كاملا حتى أنهم كانوا يروون له أسرارهم الخاصة وأسرار أهل بيوتهم ويضحون في سبيله بأرواحهم ، مما دعى الى ختية السلطان أبو كاليبج البويهى من سطوته ، ونفوذه وفكر تفكيراً جدياً في نفيه مراراً من سيراز غير أن خوفه من ثورة أتباعه قد منعه ، ولقد زادت شقة الكراهية بين السلطان أبى كاليبج والمؤيد لدرجة أنه كان يكره سماع اسمه في مجالسه ولكن المؤيد جاهد حتى استطاع أن يتصل بأبى كاليبج وأن يبذل الكراهية الى محبة وعقد مجالس للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة والتي كان يبرز فيها على خصومه ومناظريه عن ذلك كله السلطان أن يميل ناحية أمام قوة بيانه ودافع حجته كما أن السلطان كان يعقد مجلساً خاصاً يلقي فيه المؤيد شيئاً من علوم أهل البيت والفقهاء الفاطمي من كتاب دعائم الاسلام للقاضى النعمان ، ولقد أغضب ذلك كله جمهور أهل السنة في فارس وعلى وجه الخصوص القضاة والعلماء ، فأوغروا صدور المقربين من أبى كاليبج وندمائهم على المؤيد ، وانتهزوا فرصة للايقاع به عند السلطان وكان المؤيد قد زار أتباعه في مدينة أهواز فوجد مسجداً يريد أن ينقض فأقامه وشيعته ، ونقش على محرابه أسماء الأئمة الفاطميين نقشاً مذهبياً كما طلب من نقبائه الأذان فيه (بـ حـ على خير العمل) وهو أذان الشيعة كما خطب الجمعة باسم المستنصر الفاطمي فجهز بالدعوة الفاطمية دون خوف وأعلن عصيانه في بلد يدين العباسيين مما جعل ودعى قاضى الأهواز الى أن يرسل خطاباً الى الخليفة العباسى ببغداد ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد في الدين ، كما أثار أهل السنة على أبى كاليبج وجاء الوزير العباسى ابن مسلمة موفداً من قبل العباسيين للقبض على المؤيد في الوقت الذى فيه كان كاليبج يتطلع ويرنو الى ملك بغداد ، فاذا هما امرين اما ضياع الفرصة من يده في سبيل رعاية المؤيد واما أن يضحي بالمؤيد في سبيل أطماعه .

وهنا أدرك المؤيد الموقف بتمامه بعد أن انقطع السلطان عن مجالس المؤيد الليلية ورغب في لقائه تحت ستر الليل وفي مسالك الجراى والقفار ، ونزح المؤيد عن وطنه مختفيا حتى وصل الى مصر سنة ٤٣٧هـ (١١٠) .

جاء المؤيد الى مصر وملؤه الأمل فيما سيكون عى شأنه من جاء السلطان لأنه خدم دعوته خدمة لم يخدمها به أحد من قبل ، وقام بها خير قيام .

ولكنه كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد امامه المستنصر بل هي كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال التستري والبازورى وغيرهما .

ولقد صرح المؤيد في ذلك في سيرته بقوله :

« وبلغت بشق الأنفس الباب الطاهر مترجما بين أمل ويأس متعقبا لملتقى ما يلقانى من ترفى ابحاشى وأنياسى فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى حاد بها ونادانى بالأهل والرحب مناديا ، وأما اليأس فمن حيث علت أن المقصود شمس توارى بالحجاب ووجهة نهار تبرقع بالسحاب وأن المسافة لعلها تقذفنى من الاضافة في يم ويؤوينى من حيث أرادت غرما الى غرم .. أدخلونى من باب القاهرة المعزية الى قصر الخلافة عمرها الله تعالى ، فاستلمت على جارى العادة في مثله البواب ولمحت الثرايا ترابا تحت قدمي إذا ترشفت ذك التراب ، وأجلسونى هنيئة لأقيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحي لما غشيت المرة بمشاهد ذلك المقام قلبى وجوارحي ثم أدخلونى الى الوزير المعروف بالفلاجى - رحمه الله - فرأيت شيئا عليه من الوقار مسحا ومن الانسانية سمة فأدنى وقرب وأكرم ورجب فخرجت فأخذنى الى دويره (١١١) وكانت فرشت لى وهما من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالكثير ولا بالقليل » .

وعندئذ استقر بمصر وعمل على الاتصال برجالها وحضور مجالس الدعوة فيها ، ولكن على جمرات الوشايا التى لم تنقطع وفوق شوك الإدسائس المحاكة على طريقه ، يقربه الوزراء تارة ويبعدونه تارة أخرى ، وهكذا يتأرجح بين السخط والرضى وكثيرا ما كانت تراوده أفكار الرحيل عن مصر .

ولم تتحقق أفكاره ، ولقد عمل جاهدا على أن يولى مرتبه داعى الدعاة ، ولكن باءت كل محاولاته بالفشل ، وذهبت آماله أدراج الرياح ،

(١١٠) د . محمد حسين كامل - فى أدب مصر الفاطمية : ٦٠ : ٦١

(١١١) د . محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ٦١ نقلا

عن السيرة المؤيد .

ولكن عينه الوزير البازدرى رئيسا لديوان الانشاء ، وزاد معاشه وصلح حاله ووقتئذ قامت التركمانية بامتلاك بغداد ، فعلم بذلك .

وهنا ظهرت مواهبه وتوقد زكاؤه فأدرك خطورة التركمانية على الدولة الفاطمية اذا ما تم أمر بغداد لطغراليك الذى لا ينتفى ولا يتراجع عن محاربة أملاك الفاطميين فى أعالي الجزيرة والشام ، فأسرع المؤيد فى درء هذا الخطر الداهم الذى سيلحق بأملاك امامه ، فكتب رجال طغراليك يستميلهم الى الدعوة الفاطمية ، كما راسل رجال العباسيين كالباسيرى وغيرهم من رجالهم الحاقدين على التركمانية ، ووعدهم بامدادات الفاطميين ان قاوموا ، ولقد رحب البساسيرى ورجاله بالعمل تحت لواء الفاطميين وباسمهم على حين عدم استجابة رجال طغراليك وعندئذ لاح شبح الحرب بين الفاطميين والتركمانية ونشوبه أصبح أمرا متيقنا عند المؤيد ، فزاد نشاطه للدعوة وخاصة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغراليك ، فوجدت دعوته قبولا وأعدوا ما استطاعوا من قوة وخيل وسلاح وعتاد ليرهبوا به أعداءهم وأنفقت الدولة على هذه الحملة مالا جما ذكره المؤرخون فى كتبهم ، وكان عبئا جسيما على مصر وسببا من أسباب ضعفها اقتصاديا أدى الى شدة عظمى .

ولقد طلب من المؤيد أن يكون رأسا لهذه القافلة ليسلم ذخائرها الى البساسيرى فحاول الاعتذار ، ولكن المستنصر الفاطمى أمره أن يكون على رأس الركب وقيادته فلم يجد المؤيد بدا من الخضوع لأمر امامه الذى خلع عليه لبس الوزراء فأبى المؤيد وأمعن فى الابعاء .

وعندئذ سطعت فى حياة المؤيد شمس جديدة ، فاذا هى حياة الرجل السياسى العسكرى الداهية ، وخرج من مصر بحملة مفعمة بالأموال والعتاد والذخائر وبغير جنسدى واحد على أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية للمؤيد دور جديد بارز لا فى نشر الدعوة الفاطمية واعادة بلاد أخرى خرجت عن الدعوة وسلطانها فحسب ولكن نجح أيضا فى حرب التركمان وطردهم من العراق ورغم كثرة أنصاره فى الكوفة وواسط وحلب واستجابتهم لدعوته (١١٢) ، فضلا عن استطاعة المؤيد بما تجمع حوله فى أن ينتصر فى موقعة سنجار .

ولم يلبث أن يذوق المؤيد حلاوة النصر الذى أحرزه والذى على أثره دانئت له الموصل والجزيرة وديار بكر حتى ظهر بين الجموع التى تجمعت

حوله نفوسا ضعيفة متباغضة قتلها الحقد فدب بينهم النفور ، وحل الشقاق ،
وتصدع الجمع وتفرق عنه أكثر الأمراء حقدًا وحسدًا على من قربهم إليه ،
ووصف المؤيد حالهم بأنهم كانوا بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهاوس ولقد
باعث بالفشل كل محاولات المؤيدا ليشجب الشرخ الذى تصدع بينهم ، وعلم
بذلك طغراليك فانتهاز الفرصة وأسرع اليهم وهزمهم والتزم المؤيد بالصبر
وتحلى بالثبات وأخذ يحث القوم الى الرجوع اليه بالأمان مرة بعد المرة
ولكنها كانت صيحات في واد وبفكر عسكرى . خنى المؤيد أن يدركه العدو
وهو حى فأثر الانسحاب الى حلفا واتخذ منها مقرا لقيادته ، وكانت حلب
في يد المراداسيسين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، وجاهد المؤيد حتى سلموا
بلدهم الى الوالى الذى أرسله المستنصر الفاطمى وفي حلب استطاع المؤيد
أن يتصل بإبراهيم بن ينال وعمل على اغرائه واستمالته ، ونجح في أن
يخالف طغراليك بما وعده من التلقيب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة
ناجحة اذ تصدعت جيوش طغراليك بانفصال ابراهيم بن ينال عنه والذى
خرج لمحاربته ، واستغل المؤيد هذه الثغرة فانتهاز الفرصة وأمر اليبساسيرى
بالسير الى بغداد سنة ٤٥٠ هـ ودعى على منابرها باسم المستنصر بالله
الفاطمى لمدة عام .

ولو أن وزراء مصر وعوا نصائح المزيد واستمعوا لها لكان للتاريخ
الاسلامى وجه آخر ولا نمحت الخلافة العباسية بسبب هذه الحركة منذ
دخول جيوش اليبساسيرى الى بغداد ، ولكن عاد المؤيد الى مصر دون أن
يحفل به أحد ودون أن تحفل مصر بامتلاك بغداد ، فلم يذنب فيها بوق
ولم يقرع فيها طبل ، ولا غرو في ذلك فكان الوزير في مصر اذ ذاك هو الوزير
المغربى الذى لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه .

وقبائسا على ذلك نجد أن وزراء مصر قد أضاعوا فرصة ذهبية هيأها
لهم المؤيد بدهائه وسياسته .

وبعد المؤيد من أكبر علماء عصره في الدين ودليلنا على ذلك كتيبه
اذ كان واسع الثقافة ملما الماما تاما بجميع العلوم التى عرفت في العائمه
الاسلامى كما كان قوى الحجة في مناظراته وجداله مع مخالفيه . وقد صدق
أبو العلاء المعرى حين وصفه بقوله « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين
لازالت حجتة باهرة ودولته عالية » (١١٣) .

ولقد كان أبو العلاء المعرى يخشى المخاطرة مع المؤيد لقوة منطقته وفصاحته
بيانه كما اعترف له بالتفوق في الجدل وأنه ورث علم الأولين (١١٤) .

وقد مات المؤيد سنة ٤٧٠هـ بالقاهرة ودفن في دار العلم بجوار القصر
وصلى عليه الامام المستنصر نفسه (١١٥) .

من مؤلفات المؤيد

١ - المجالس المؤيدية :

هو أكبر كتب الدعوة الفاطمية ، يضم ثمانمائة مجلس من مجالس
الدعوة التي كان يلقبها المؤيد ، وهو دليل واضح على أن الدعوة الفاطمية
وعلومها بلغت الذروة على يد المؤيد .

ولقد رتب حاتم بن ابراهيم الحامدي الداعي اليمنى هذا الكتاب
وبوب موضوعاته ونسقه وسماه « جامع الحقائق » وقد كان دعاة اليمن
يقتطفون من مجالس المؤيد ويستشهدون بها . حيث مناظرات التريد ورده
على المخالفين للدعوة .

٢ - ديوان المؤيد في الدين :

لم يكن المؤيد داعيا وعالما فحسب بل كان أيضا شاعرا وأديبا فله
مجموعة من قصائد في مدح الأئمة والحديث عن العقائد الفاطمية ومصطلحاتها
ولقد أورد المؤيد في ديوانه مشاهدته عن حياته وتطوراتها وأحواله كما صور
جهوده .

٣ - السيرة المؤيدة :

هو أقدم كتاب تاريخي يصور لنا الحياة السياسية والاجتماعية في كل
من فارس والعراق ومصر في المدة من ٤٢٩هـ حتى ٤٥٠هـ وسجلا للوثائق
المتبادلة بين المؤيد وأمراء العرب وبينه وبين الوزراء المصريين ابان ثورة
البياسيرى .

وللمؤيد كتب أخرى مثل كتاب « شرح المعاد » وكتاب « الايضاح
والتبصير في فضل يوم القدير » وكتاب « الابتداء والانتهاء » وكتاب
« تأويل الأرواح » وكتاب « نهج العباد » وكتاب « المسألة والجواب » .

ولقد ترجم أيضا الى اللغة الفارسية كتاب « أساس التأويل » للقاضى
الفاضل وهو فى شرح وتأويل قصص الأنبياء (١١٦) .

ان المؤيد فى الدين الشيرازى أخلص الفاطميين اخلاصا بما فى كل هذه
الكلمة من معانى بل يعد من أخلص الولاة الذين اتخذوا بلاد المشرق مجالا
واسعا لنشر دعوتهم ، ويفضل ما أوتى من حكمة ودهاء أضعف نفوذ العباسيين
فى بعض بلاد المشرق (١١٧) فضلا عن حرصه وتهمسكه بولاته للخلافة الفاطمية .

والمؤيد أستاذ الدعوة فى اليمن والهند ، فعنه أخذ القاضى الملك بن
مالك علوم الدعوة والتى عاد يلقيها على المستجيبين من أهل اليمن ، ولقد
ذكره ناصر خسرو الشاعر الفارسى والمعروف فى أشعاره ووصف مجالسه
اعترافا باستاذيته له .

وهكذا كان للمؤيد أثر فى الحياة السياسية والعقلية والأدبية التى
كانت فى نمو مطرد التى يعد ازدهارها سببا فى ازدهار الحركة الفلسفية
التي كانت فى أغلبها تتبع عقائد الفاطميين (١١٨) .

-
- (١١٦) د محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٥
(١١٧) د محمد جمال الدين سرور - سياسة الفاطميين الخارجية :
ص ١٨٣
(١١٨) د محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ص ١١٧ -
ص ١١٨

المصادر والمراجع

اولا - المصادر والمراجع الفنية :

- ١ - القرآن الكريم ..
- ٢ - البداية والنهاية - ج ٧ - ابن كثير ..
- ٣ - الكامل في التاريخ - ج ٣ - ابن الاثير ..
- ٤ - المواعظ والاعتبار - ج ١ - المقرئى ..
- ٥ - النجوم الزاهرة - ج ١ - بن تغرى بردى ..
- ٦ - أنساب الأشراف - ج ٢ - البلاذرى ..
- ٧ - تاريخ الدولة العربية - يوليوس فلهوزن - ترجمة د. محمد عبد الهادى ..
- ٨ - تاريخ الأمم والملوك - ج ٥ - الطبرى ..
- ٩ - تاريخ اليعقوبى - ج ٢ - لأحمد بن يعقوب ..
- ١٠ - حسن المحاضرة - ج ١ - السيوطى ..
- ١١ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء - ج ٣ - القلقشنذى ..
- ١٢ - معجم البلدان - ج ٣ - ياقوت الحموى ..

ثانيا المصادر والمراجع الحديثة :

- ١ - الفتنة الكبرى : على وبنوه - د. طه حسين ..
- ٢ - الخلافة والدولة فى العصر الأموى - د. محمد حلمى محمد أحمد ..
- ٣ - الخلافة والدولة فى العصر العباسى - د. محمد حلمى محمد أحمد ..
- ٤ - عمرو بن العاص - العقاد ..
- ٥ - مصر فى فجر الاسلام - د. سيدة الكاشف ..
- ٦ - ولاية مصر - د. حسين نصار ..

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٨٧٧

القاهرة الحديثة للطباعة

أحمد بهاء الدين الخريوطي

٣ شارع الجدي بالقاهرة

مطبعة ٩٦٤٣٠ - ص. ١٤٩١٢٨

